الباب الأول

ما جاء به الدين الإسلامى من تعاليم غير مسبوقة

- **الفصل الأول:**
  الإيمان بالله واليوم الآخر
  والملائكة وكل الرسل
- **الفصل الثانى:**
  التسامح.. حتى مع
  أهل الذمة
- **الفصل الثالث:**
  قبس من أنوار الحضارة
  الإسلامية.. شرقاً وغربا

الفصل الأول

الإيمان بالله اليوم الآخر والملائكة وكل الرسل

منذ التقينا فوق هذه الأوراق وكان بيننا شبه اتفاق، موثق فى قوائم الأخلاق، ومنصوص فيه على ضرورة أن نلجأ فيما نذكره أو نناقشه من قضايا أو موضوعات.. إلى الأدلة والبراهين، سواء المكتوب منها أو الشفهى.

وقد بدأنا قدر المستطاع تطبيق نصوص هذا الميثاق، ونعتقد أننا سوف ننجح فيه إلى حد بعيد.. حيث تكون وجهتنا دائماً فيما نقدمه أثناء تناولنا لأى موضوع، إلى الأدلة والبراهين التى تؤيد سواء وجهة نظرنا، أو وجهة نظر الآخرين من الذين سوف يعارضوننا فيما نذهب إليه، وعلى وجه الخصوص ما ارتبط بالقضايا أو الموضوعات التى سوف نناقشها من خلال فصول البابين الثانى والثالث.

ومنذ هذه اللحظة سوف نواصل اتباع قواعد ذلك الميثاق وبنوده عند الحديث عن فصول هذا الباب أيضا والذى خصصناه للحديث عن سماحة الإسلام ودلائل تلك السماحة، مما يعنى ضرورة الرد القوى والشديد على كل ما يقال عن هذا الدين وما دفع الآخرين للربط، بينه وبين الإرهاب!!.

هذا الرد يقوم فى الأساس على تقديم الأدلة والبراهين المكتوبة والمروية سواء عند المسلمين أو عند غيرهم، وهى كلها وكما سوف نعرف بعد ذلك سواء من خلال هذا الفصل أو الفصول الأخرى مستمدة من كتاب الله الحكيم "القرآن الكريم" وهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه أبداً ولا من خلفه، ذلك لأنه تنزيل من لدن حكيم عليم وهو رب العالمين.

هذا الكتاب العظيم الذى هو دستور هذا الدين وعماده، قد أثبتت السنوات،

بل وكل الدهور.. صدق كل ما جاء به، وفى مختلف نواحى الحياة ولصالح البشر جميعاً!.

هذا الصدق مستمد فى الأصل من غاية الله لهذا الكتاب.. مصداقاً لقوله تعالى: **«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»** فى مقابل ما تعرضت له من قبل التوراة وكذلك الإنجيل للتحريف والتزوير.. مما جعلهما يبتعدان فيما سطره المزورون، بأقلامهم.. عن الغاية التى أُنزلا من أجلها من لدن رب العالمين.

• • •

والحديث الجدير بالاهتمام خلال هذا الفصل والذى نفتتح به رحلتنا من خلال هذا الباب والذى نستشف منه تلك الملامح السمحاء للدين الإسلامى رغم ما يروجه عنه أعداؤه من اتهامات باطلة لا نعرف من أين جاءوا بها!! هو ضرورة الوقوف على أصول ذلك الدين الحنيف.. الذى يقوم فى الأساس على ضرورة الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالملائكة الكرام وكل الكتب السماوية والأنبياء والرسل.

هذه الأصول الخمسة قد اختتم بها رب العالمين سورة البقرة، وذلك فى قوله تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

وما نود أن نشير إليه فى سياق حديث هذا التسامح هو ضرورة التأكيد على أن الدين الذى كان وسوف يكون عند الله هو الإسلام.. من أجل ذلك فقد كان هو الراية الآمنة التى استظل بأسفلها كل الأنبياء، حاملين فوق أكتافهم الدعوة لوحدانية الله، وبيان أصول عبادته، وهو ما يؤكد فى الوقت نفسه سماحة هذا الدين وقوته، واستمراره رغم أنف المعارضين والمحاربين له ولأتباعه!.

ولذلك وجدنا الكثير من العلماء والمفكرين يعولون صلاح الأحوال فى الدنيا وفى الآخرة على وحدانية الله باعتبارها من أكمل الغايات التى خُلق الإنسان لأجلها، بل وكانت سبباً فى تعميره للأرض إلى يوم القيامة..

فعلى سبيل المثال.. يرى العالم الدكتور عبد الصبور مرزوق أن الإطار الذى تكون به بداية تكوين المجتمعات.. وتكون بفقدانه نهايتها.. هو إطار العبودية والعبادة لله الواحد الأحد، سبحانه وتعالى، وهى أساس خلق الناس، كما كانت أساس ومحور جميع الرسالات السماوية لجميع رسل الله عليهم السلام، على نحو ما جاءت به آيات القرآن الكريم، وعلى ألسنتهم جميعاً، مثل قول الله تعالى:

** ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة الأعراف من الآية ٥٩.

** ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة الأعراف من الآية ٦٥.

** ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة الأعراف من الآية ٧٣.

** ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة الأعراف من الآية ٨٥.

** ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ سورة النحل من الآية ٣٦.

** ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ سورة العنكبوت من الآية ١٦.

** ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ سورة الأنبياء الآية ٢٥.

ثم تأتى الآية الكريمة الكاشفة بوضوح على حد قول الدكتور عبد الصبور مرزوق عن علة الخلق فى قوله سبحانه:

** ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات الآية ٥٦[١].

• • •

إذن ـ وكما يؤكد ذلك ما جاء بالقرآن الكريم ـ فإن كل الأديان السماوية التى أرسلها رب العالمين على قلوب رسله.. إنما تدعو إلى هذه الوحدانية باعتبارها قوام تلك الأديان وعمودها الفقرى..

هذا معناه، أن ما جاء بكل من الديانتين اليهودية والمسيحية، وبخلاف ما أصابهما من تزوير وتحريف.. إنما كان عماده الدعوة لوحدانية الله العظيم، لكن وفى ظل ما أصابهما على يد أصحابهما من المغرضين، فقد ابتعدتا عن خط سير هذا التوحيد، وبالتالى فقد تغير مفهومهما، وكل ما جاءتا به من تعاليم ونصوص إلهية.

هذا التغيير قد أبعدهما أيضا عن خط سير سماحة الأديان السماوية، وهو ما لم يصب ولله الحمد دين الإسلام، الذى لايزال فى قلوب أتباعه قائماً على الوحدانية والدعوة لله الواحد الأحد ولسوف يظل كذلك إلى يوم القيامة!

ولكل من يريد من الدارسين فى الغرب أن يتعرف على ملايين الفروق بين الإسلام وما جاء به فى المقام الأول من الدعوة لعبادة رب العالمين.. إله واحد لا شريك له، وبين ما جاء فى كل من اليهودية والمسيحية من تعاليم اقتربت بشدة من حافة الشرك بالله العظيم، فعليه أن يبدأ حالاً فى عقد تلك المقارنات والتى سوف توصل أصحابها حتماً إلى حقيقة الدين الإسلامى، فى مقابل ما هو موجود الآن فى كل من اليهودية والمسيحية.

• • •

(١) منهجية التغيير الاجتماعى فى القرآن الكريم ـ د. عبد الصبور مرزوق.

والدعوة إلى وحدانية الله تعالى.. كأحد الأصول المهمة والعظيمة في دين الإسلام.. وفى غيره من الديانات ومن قبل تحريفها.. لابد وأن يستتبعها كما يؤكد ذلك العلماء والفقهاء ورجال الدين.. عدة أصول أخرى لا يمكن أن تنفصل أبداً عن هذه الوحدانية. ويأتى فى مقدمتها.. العبادات: التى هى فى الأصل تكليفات ربانية، جاءت بها أوامر من السماء ونادى بها رسل كل تلك الديانات، وذلك لإثبات الوحدانية فى قلوب أصحابها.

وهى على تنوعها وأهميتها.. تقوم على اختبارات روحانية.. يكتشف الإنسان من وراء أدائها والالتزام بها مدى إيمانه بالوحدانية التى جاء بها هذا الدين أو ذاك، كما أنها أيضا الوسيلة الوحيدة التى عن طريقها يتقرب العبد من الله، بمقدار ما يوجد فى قلبه من إيمان، ومساحات قد تصغر أو تكبر فيما يخص ذلك الإيمان بتلك الوحدانية.

ولقد أوضح الله هذه العبادات فى كل الأديان السماوية.. لكنها وكما يؤكد ذلك كل العلماء لم تكتمل إلا فى دين الإسلام، حيث بُنى هذا الدين بالنسبة لتلك العبادات على خمس هى كما قال رسول الله ﷺ: «شهادة أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً رسول اللهﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً».

ويقول الدكتور محمد الجوهرى فى تعليقه على أهمية هذه العبادات التى تفرد بها دين الإسلام. إن الشهادتين والصلاة والصوم، والزكاة والحج هى أركان الإسلام، وهى وسائل لدوام الذكر والارتباط بالله سبحانه وتعالى وتزكية النفس وتصفيتها من الأدران كما أنها وسائل بناء النفس القوية والإيمان الصادق والبناء الاجتماعى المتين[1].

ورغم إيمان الإنسان، بأن كل دين قد أنزله رب العالمين على قلوب عباده. وأساسه الوحدانية كما قلنا من قبل، إنما يقوم على العقائد والعبادات، إلا أن

(١) الثقافة العربية والحضارة الإسلامية.. د. محمد الجوهرى.

هناك من العلماء من أضاف عدة أصول وتشريعات وأحكام، مما اتصل بحياة الإنسان فى شتى جوانبها، وذلك لكى يميزوا فيما قالوه بين ما جاء فى دين الإسلام وغيره من الأديان.

ومن ذلك قولهم: أن هناك بالإضافة إلى العقائد والعبادات كأصول للإسلام ما يسمونه بالأخلاق، مصداقاً لقول رسولنا الكريم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، ومنهم من يربطونها بالتقوى باعتبارها محور الأخلاق الطيبة فى الإسلام، وقد احتفل بها القرآن الكريم كثيراً فيما جاء به من سور وآيات.

وكذلك هناك المعاملات، ويقصدون بها الأحكام التى تنظم علاقات الناس ببعضهم وتقيم الروابط بينهم على أساس العدل والرحمة والمحبة والتعاون ورفع أسباب الضرر والعدوان، ثم العقوبات التى تهدف إلى تهذيب النفس وتطهير القلوب، وأخيراً العلاقات، حيث حدد الإسلام العلاقة التى تربط الإنسان بربه وبالحياة والأحياء[1].

وأيضاً لو تدبرنا نحن هذه الأصول فى كل من اليهودية والمسيحية وحتى من قبل تزويرهما، فلن نجدها بهذا الوضوح وبتلك السماحة والسلاسة والسهولة. ذلك لأن الله تعالى قد جعل دين الإسلام هو خاتم كل الأديان، وبالتالى فقد جعل كل ما جاء به مفسراً وموضحاً ومستوعباً لكل ما جاء فى غيره من الأديان الأخرى.

ليس هذا فقط بل ومعترفاً بكل ما جاء فى هاتين الديانتين السابقتين، مما يعنى.. أن هذا الدين يقوم فى الأساس على الاعتراف بالآخرين وليس إنكارهم، كما هو حادث فعلاً فى كل من اليهودية والمسيحية، وذلك هو المفهوم العظيم الواسع للتسامح، وليس للإرهاب كما يزعمون!.

وإذا ما توسعنا قليلاً فى الحديث عن الإسلام من هذه الزاوية، ومن قبل أن ننتقل إلى حديث آخر من أحاديث ملامح ذلك التسامح العظيم لدين الإسلام،

(١) المصدر السابق.

لابد أن نشير إلى ما أشار إليه غيرنا من قبل، من أن دين الإسلام، إنما يتصف بالعالمية، وبأنه صالح لكل زمان ومكان، ولولا اتصافه بالتسامح، لما تمكن ذلك الدين من الصمود طويلاً ضد كل ما تعرض ويتعرض له دائماً من حروب عرفنا بعضها والبعض الآخر لايزال فى ذمة التاريخ.

ويؤكد الدكتور محمد عبد الله دراز على هذا المعنى فى قوله: "إن الإسلام فى لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم لدين مشترك، هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع هؤلاء الأنبياء".

وهو يستند فى ذلك على عدة أدلة وبراهين جاء ذكرها فى القرآن الكريم نفسه، حيث رأينا نوحاً يقول لقومه: ﴿ **أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ سورة يونس من الآية ٧٢، ويعقوب يوصى بنيه ﴿ **فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ سورة البقرة من الآية ١٣٢، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿ **نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾، وموسى يقول لقومه: ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾ يونس من الآية ٨٤، والحواريون يقولون لعيسى: ﴿ **آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون**﴾ سورة آل عمران، وإن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن: ﴿ **قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**﴾ سورة القصص الآية ٥٣[1].

ويتساءل الدكتور دراز فيما كتبه فى مؤلفه الهام "الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان": ما هذا الدين المشترك والذى اسمه الإسلام، والذى هو دين كل الأنبياء والرسل ؟!".

ونراه يجيب على ذات التساؤل بقوله: "إن الذى يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين: إنه التوجه إلى الله رب العالمين فى خضوع خالص لا يشوبه شرك، وفى إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أى لسان وفى أى مكان وزمان،

(١) القرآن والسلطان هموم إسلامية معاصرة . فهمى هويدى.

ودون تمييز شخصى أو طائفى أو عنصرى بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله.

وفى هذا المعنى يوجه الله الخطاب: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ سورة البقرة الآية ١٣٦[١].

هذه الميزات المتعددة، هى التى جعلت من دين الإسلام، دين العالمية. الذى لابد أن يسود كل البشر إلى يوم القيامة ليس من منطق التعصب، بل من منطق تحقيق الفائدة العظيمة لكل البشر، بما حض عليه وما جاء به من تعاليم منها التسامح والمحبة والإخلاص القائم على عبادة الله الواحد الأحد.

هذا المعنى يؤكده أيضا الأستاذ الدكتور شوقى ضيف عميد المجمعين العرب وذلك فى قوله: "إن الإسلام هو الدين العظيم الذى اختاره الله كما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية ليكون خاتمة دياناته السماوية لتسعد به البشرية عن طريق تعاليمه الربانية سعادة كبرى فى الدنيا وفى الآخرة. كما وضع الله فيه قانوناً عالمياً ملزماً للمسلمين وغيرهم: أن تكون الحرية الدينية مكفولة لجميع الناس، فلا إكراه فى الدين ولا قهر لأحد فيه، وقد التزم بذلك الرسول ﷺ، والتزم به الخلفاء الراشدون، والتزم به المسلمون منذ فتوحاتهم على مر العصور، كما أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى عاش فى دياره كل أصحاب الملل إلهية ووثنية، مع صيانة معابدهم وأموالهم، وأن تكون لهم محاكم خاصة بهم كنسية وغير كنسية من رؤساء أديانهم، وكانوا جميعا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وحمايته[٢]. .

ويقدم لنا الدكتور ضيف من خلال ما سطره فى أحدث كتبه. . دلائل هذه

(١) المصدر السابق.

(٢) عالمية الإسلام ـ د. شوقى ضيف.

العالمية وأهم مظاهرها، وذلك بتقديم دراسة تاريخية على جانب كبير من الأهمية، رد بها على أقاويل المغرضين الذين يريدون تشويه هذا الدين وإبعاده عن مساره الصحيح فى خدمة الإنسان.

ونراه فى هذا السياق يتحدث وبالتفصيل عن أحد أهم مظاهر هذه العالمية والتى تفرد بها دين الإسلام، وهى ظاهرة التسامح والتى لا توجد فى أى دين سماوى بنفس مقومات ماهى فيه فى دين الإسلام، ونحن نراه يقول عن ذلك تحت عنوان «التسامح: إنه التساهل فى كل شىء سواء فى المعاملة أو فى الحقوق».

وفى الحديث: «أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة» والحنيفية: ملة الإسلام، والرسول ﷺ يقول: إن الله يحبها لأنها سمحة ليس فيها ضيق ولا شدة. وضرب الله للمسلمين أعظم مثل للتسامح فى قوله تعالى فى سورة البقرة: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾**.

ويؤكد الدكتور ضيف: على أن الله يسوى فى هذه الآية بين المؤمنين واليهود والنصارى من أهل الكتب السماوية والصابئين عبدة الكواكب قائلاً: إن من آمن منهم جميعاً بالواحدانية وبالبعث وعمل عملاً صالحاً لنفسه ولغيره، فكل هؤلاء لهم أجرهم وثوابهم عند الله يوم القيامة، ولا خوف عليهم فيها ولن يلحقهم أى حزن، فأى تسامح أعظم من هذا التسامح، حتى مع الصابئة الوثنيين إذا آمنوا بربهم وبالبعث، وعملوا عملاً صالحاً لهم ولمجتمعهم، والله يلغى بذلك التعصب للديانات، وهو سبحانه وتعالى يريد كذلك من المسلمين التسامح مع من يخالفهم فى الدين حتى ولو كان من الصابئة عبدة الكواكب أو من المشركين، وهو تسامح يبلغ بالحياة الإنسانية أقصى ما يريده الله لها من السمو»[1].

• • •

(١) المصدر السابق.

وإذا ما انتقلنا من الحديث عن وحدانية الله تعالى.. باعتبارها أهم أصول الدين الإسلامى، بل هى فى الوقت نفسه من أهم أعمدة كل الديانات السماوية.. وذلك للحديث عن ملمح آخر من ملامح تسامح الإسلام، كنوع من التفرد والذى يتميز به ذلك الدين فى مقابل ما تدعو إليه كل من اليهودية والمسيحية، كما سوف نرى ذلك فيما بعد، لسوف نكتشف أن هذا الملمح التسامحى فى ديانة الإسلام، بل وفى كل الديانات السماوية، لابد أن يكون بالضرورة نابعاً من الإيمان بالبعث ويوم الحساب، ذلك لأن الإيمان بالبعث والحساب، هو فى حد ذاته نابع من الإيمان بالله؛ الذى نص فى كل كتبه السماوية على ضرورة وقوع هذا الحساب فى يوم الدين.. إحقاقاً للحق، وتبرئة لذمة العباد أمام خالقهم يوم تقوم الساعة.

ولقد لاحظنا ولشدة أهمية الإيمان بيوم البعث وجود نوع من الارتباط فى بعض الآيات القرآنية بين الإيمان بالله ووحدانيته والإيمان بالبعث والحساب، وهذا فى تصورنا نابع فى الأساس من رغبة المولى عز وجل فى كشف عباده أمام أنفسهم يوم لا تخفى على الله خافية وهو الله جل جلاله. سواء من الذين ادعوا فى الدنيا أنهم قد آمنوا بوحدانية الله كذباً أو صدقاً.. رغم أن الله تعالى يعلم السر وأخفى.

إن المؤمن الحق والذى يضع فى حسبانه الوقوف بين يدى الله فى يوم الحساب، لابد له أن يراجع نفسه دوماً لاختبار قوة إيمانه بالله ووحدانيته.. وحتى لا يفاجأ بما سوف يناله من جزاء لعدم قوة هذا الإيمان.

وما نود أن نشير إليه فى سياق هذا الحديث هو ضرورة القول بأن الإيمان باليوم الآخر وفق ما نص عليه القرآن الكريم إنما يمتد إلى الإيمان بيوم القيامة وما سوف يتلوه من أحداث جسام ترتبط بيوم الحساب، ثم بيوم الجزاء الأعظم،

عندما يتعرف كل منا على مصيره. وذلك بناء على ما قدمت الأيدى والألسن من كلمات وأفعال، يعاقب أو يثاب عليها كل منا.

ولقد وردت آيات بينات كثيرات عما سيحدث فى اليوم الآخر ويوم القيامة ويوم الحساب ويوم الجزاء وما سوف يصيب الإنسان ما بين الجنة والنار!

ومن هذه الآيات البينات قول الله تعالى فى سورة الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الآيات من ٦٧-٧٥.

ومن يفيض الله عليه بعلمه وحكمته.. ومن ثم يتدبر كلمات هذه الآيات الكريمات.. سوف يقضى لحظات طيبة مع البعث واليوم الآخر والحساب والجنة والنار.. إذ تنقل إلينا هذه الآيات صوراً صادقة عن اليوم الآخر وكيفية بدايته

ونتائجه ونهايته التى يسعد بها أصحاب الحظ الطيب من العاملين بكتاب الله وسنة رسوله الكريم.. حيث يورثهم رب العالمين أرض الجنة الطيبة كى يعيشوا فيها أبداً.. وسط النعيم المقيم. وفى المقابل، فإن الله تعالى يخلد أهل الكفر فى النار ماكثين فيها أبداً!

وفى حديث طيب.. يستحق منا الوقوف أمامه طويلاً.. ذكر الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود عن يوم البعث واليوم الآخر: «إن الله تعالى خالق، وهو واحد، مريد، عالم، قادر، وهو أيضا باعث، ومسألة البعث، مسألة أنكرها قوم يطلق عليهم الطبيعيون وفق ما أشار إليه الإمام الغزالى. وقد رد عليهم القرآن الكريم، وغيرهم من الذين ينكرون البعث ويوم القيامة.

وفى سورة يس آيات متتالية تحدثت عن رأى منكرى البعث، ثم ردت عليهم ردوداً متنوعة مختلفة واضحة وقوية، كما يسبق البعث ويعقبه أمور تحدث عنها القرآن فى كثير من الآيات ووصفها فى روعة أخاذة: «إنها تصف لنا يوم القيامة وتتحدث عن الحساب والميزان، كما تصف حال المؤمنين الكافرين وتصور النار فى صورتها البشعة الكريهة والجنة فى ريحانها وقصورها ورياضها الفيحاء»[1].

• • •

ويرتبط الإيمان باليوم الآخر وكما يؤكد ذلك الإمام الراحل الشيخ محمد متولى الشعراوى.. الإيمان بالغيب، باعتباره أول شروط التقوى، وباعتباره أيضا قضية هامة تحكم السلوك الإنسانى.

وفى ذلك يقول الإمام: «فأنت مادمت تؤمن بالغيب، وباليوم الآخر وبالحساب، فأنت تخشى الله سبحانه تعالى.. فى كل عمل تقوم به، فإذا مددت يدك لتسرق، تتذكر أنك ملاقى الله، وأنه سوف يحاسبك على ذلك، فتتراجع

(١) القرآن فى شهر القرآن ـ د. عبد الحليم محمود.

عن السرقة، وإذا أردت أن ترتكب ما حرم الله، وتذكرت الآخرة والحساب.. خشيت الله وتراجعت»..

ثم يضيف الإمام الراحل: «إذن أساس السلوك البشرى فى الدنيا هو الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب، يدخل فيه أساساً الإيمان باليوم الآخر، فإذا لم يكن إيمانك بكل هذا.. إيمان يقين، بمعنى أن ذلك يحدث وكأنك تراه أمامك يقينا لا يدخل إليه الشك أبداً. وإذن فى هذه الحالة تكون قد اهتززت ويستطيع من هنا الملحد أو غير المؤمن، أن يدخل إليك ليضع الشك فى نفسك، ويحاول أن يوهمك بأن كل حديث عن الغيب.. هو غير صحيح أو غير واقع، ومادام غير واقع، فإن السلوك الإيمانى كله يتغير».

ويصل الشيخ الشعراوى من كل ذلك إلى بيان أهمية الإيمان باليوم الآخر كأحد المصادر الرئيسية ليس للدين الإسلامى فقط، بل ولكل الأديان السماوية، ويبدو ذلك بوضوح فى قوله: «لولا الإيمان بالآخرة، لتحولت الدنيا كلها إلى مجموعة من الوحوش، يقتل القوى الضعيف، ويعتدى القادر على غير القادر، ويضيع الحق وتباح المحرمات، ولكن أخشى ما يخشاه المؤمن هو حساب الله له فى الآخرة.. لماذا؟! لأنه يؤمن أنه ملاقى الله سبحانه تعالى، وأن حساب الآخرة سيكون بقدرات الله سبحانه وتعالى»[1].

والمدقق فى معانى الكلمات السابقة سوف يكتشف بصدق قيمة الإيمان باليوم الآخر مثلما هو حادث فى حالة إيمان الناس بالله الواحد الأحد وهى كلها معان وأصول يقوم عليها الإسلام الحنيف.. كما هى فى الوقت نفسه أصول بُنيت عليها بقية الأديان السماوية. والتى اختفت معانيها وأصولها من صدور أتباعها.. فى ظل انتشار المادية التى ازدهرت فى عصر الإرهاب والعنف كسمتين رئيسيتين لما يتصف به معظم أتباع هاتين الديانتين.

(١) معجزة القرآن ـ ج (٤) للشيخ محمد متولى الشعراوى.

وهنا يبرز دور الإسلام العظيم، حيث لايزال أتباعه يحافظون وبكل قوة على هذين الأصلين من أصول الإسلام، وهما الإيمان بالله وباليوم الآخر..

ولسنا فى حاجة مرة أخرى إلى أن نذكر المتابعين لنا أن اليوم الآخر.. يرتبط فى واقع الأمر بيوم القيامة والبعث والحساب ثم مثوى البشر بعد الحساب، حيث الجنة أو النار!

والإيمان باليوم الآخر لذلك لابد وأن يشمل الإيمان بكل ما يرتبط به سواء من حيث وجود البعث كحقيقة مثبتة فى كل الأديان السماوية والدين الإسلامى أيضاً، وكذلك يوم القيامة ثم الحساب.

ومع ذلك فإن هناك بعض المفسرين وبعض المؤرخين خاصة المرتبطين بالإسلام من الذين يفرقون فى أحاديثهم بين هذه المسميات الثلاثة والتى تؤدى جميعها إلى معنى واحد هو اليوم الآخر.. باعتبارها مراحل تؤدى كل منها إلى الأخرى، وهم يقولون فى ذلك أيضا أن يوم القيامة على سبيل المثال يعتبر أولى مراحل اليوم الآخر، ويقع بعد حدوث الصيحة الكبرى من رب العالمين. ثم يعقبها موت كل شىء فى الكون.. حتى الملائكة، بعدها تأتى الصيحة الثانية من رب العالمين.. وهى صيحة اليقظة أو البعث.. إذ يأمر الله تعالى كل دابة فى الأرض وكل شىء فى كونه العظيم من قبل تدميره للبعث من جديد، وعلى إثر هذا البعث كمرحلة ثانية من مراحل يوم القيامة، تنصب الموازين القسط.. إيذاناً ببدء المرحلة الثالثة والأخيرة من يوم القيامة، وهى مرحلة الحساب، حيث يساق الناس زمراً إما إلى الجنة أو إلى النار كل حسب ما جاء فى كتابه، وما شهدت عليه جوارحه، وما تم الكشف عنه من أعمال أمام رب العالمين، وذلك مصداقاً لقوله تعالى فى سورة الأنبياء: **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾** الآية ٤٧.

وهناك بخلاف هذه الآية الكريمة عشرات الآيات البينات التى صورت وتصور

لنا مرحل اليوم الآخر.. وتلك أيضا إحدى ملامح التسامح فى دين الإسلام الذى يحض الناس على فعل الخيرات، ومن لا يمتثل لذلك ويعمل عملاً غير صالح، يتعرض لموقف فى غاية الصعوبة فى يوم القيامة ثم فى اليوم الآخر وأثناء الحساب!

ومن يقرأ فى تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية لا يجد أى صدى للإيمان باليوم الآخر.. وبالتالى فقد ضاع الحساب والعقاب من بين أيدى أصحابهما، ومن ثم فقد تحولوا إلى وحوش كاسرة، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعرفون بأن هناك حسابا!

ولعل ذلك أيضا من الفروق العظيمة بين الإسلام وبين غيره من الديانات السماوية، والتى تُحسب لهذا الدين الحنيف، وبالتالى تبعده عن مسار ما يدعونه من إرهاب وتعيده فى أذهانهم وفى قلوبهم إلى المسار الصحيح، مسار التسامح القائم على الإيمان بالله وباليوم الآخر!.

• • •

ولايزال فيض حديث التسامح يجرى أنهاراً فوق كل الكتب والمؤلفات التى تحدثت عن الإسلام دون غيره من الديانات الأخرى.. لا لشىء إلا لأجل بيان تفرد هذا الدين وعظمته وقوته، باعتباره آخر ديانات السماء لأهل الأرض.

فبعد أن حض هذا الدين كأصل عظيم من أصوله المتينة على الإيمان بالله الواحد الأحد.. ثم الإيمان باليوم الآخر.. حض هذا الدين كذلك على الإيمان بالملائكة الكرام.

ولقد امتثل أتباع دين الإسلام لهذا الأصل امتثالاً عظيماً. حيث بات الإيمان بالملائكة يدخل ضمن ثوابت معتقدات أتباع هذا الدين وبلانقاش أو رياء أو مواربة!!

وما نود أن نشير إليه فى سياق هذا الحديث.. أن الإيمان بالملائكة أيضاً..

إنما يدخل ضمن إيمان المسلمين بالغيبيات.. على عكس ما يحدث أيضا لدى أتباع كل من اليهودية والمسيحية!

ولسوف يتضح موقف هاتين الديانتين من الملائكة المكرمين، من استعراض ما كتبوه فى كتبهم وبأيديهم!، ومع أجل ذلك سوف نسرد هذا الحديث عن الملائكة لبيان دورهم كخلق جميل من خلق الله، وأشياء أخرى كثيرة تتعلق بهذا الخلق العظيم، والذى بدأ به رب العالمين عمارة هذا الكون من قبل خلق الإنسان.

إن عقيدة التوحيد على حد قول الكاتب الإسلامى أحمد بهجت تقوم على الإيمان بالملائكة، باعتبارهم سفراء الله إلى أنبيائه من الرسل، وهم كذلك جنوده فى كونه.. ذلك لأن الملائكة كأنقى خلق الله ينتمون إلى الملأ الأعلى، وهو يؤكد فى السياق نفسه مثل آلاف المفكرين غيره على أننا لا نعرف الكثير عن عالم الملائكة بالقدر الذى أخبرنا به رب العالمين..

فنحن مثلا لا نعرف متى خلق الله تعالى ملائكته المكرمين.. وكل ما نعرفه على سبيل اليقين أن الملائكة خلقوا قبل البشر، بدليل أن الله تعالى قد أخبرهم وكما يبين لنا ذلك القرآن الكريم أنه تعالى سيخلق الإنسان ويستخلفه فى الأرض وقد أمرهم أن يسجدوا لآدم، إلا إبليس الذى رفض ذلك الأمر ، ولذلك كان مثواه جهنم وبئس المصير[1].

ويضيف أن للملائكة صوراً فى الملأ الأعلى، وهى صور تتشكل وتتغير إذا نزلوا إلى الأرض فى مهمة، إذ نحن لا نرى الملائكة على صورتهم التى خلقهم الله عليها، ولا يستطيع الإنسان ذلك إلا إذا كان أميراً للأنبياء وخاتما للرسل ورحمة للعالمين، وقد رأى رسولنا ﷺ الملاك جبريل عليه السلام.. باعتباره سفير الله تعالى، على صورته التى خلقه الله عليها مرتين، مرة عندما بدأ نزول الوحى، ومرة عند سدرة المنتهى فى رحلة الإسراء والمعراج.

كما نعرف كذلك أن رسولنا الكريم ﷺ قد شاهد العديد من الملائكة فى

(١) الله فى العقيدة الإسلامية ـ رسالة جديدة فى التوحيد ـأحمد بهجت.

السموات السبع فى أثناء هذه الرحلة.. وهم على أشكالهم التى خلقها الله.. وكذلك فى مهامهم التى وكلوا بها من قبل رب العالمين.

• • •

ولقد حاول بعض العلماء التعرف على طبيعة خلق الملائكة بالقياس لطبيعة خلق الإنسان والجن.. وكان سبيلهم إلى ذلك القرآن الكريم. الذى أكد لنا فى آياته البينات أن الله تعالى قد خلق الإنسان من صلصال كالفخار وقد تحول إلى حمأ مسنون، وكان أصله من طين، وكذلك خلق الله تعالى الجان من مارج من نار.. أما الملائكة، فقد أشارت السنة النبوية المطهرة، وفى حديث للنبى الكريم ﷺ روته السيدة عائشة عن رسول الله قال فيه: «خلقت الملائكة من نور».

وكما أن للملائكة خلقا مختلفا عن بقية مخلوقات الله تعالى، فإن لها كذلك مهام ووظائف تختلف باختلاف مايوكل لها من رب العالمين. من حيث أنهم خلق لا يعصون الله ما أمرهم، وهم يسبحون بحمده ولا يفترون أو يصيبهم التعب من هذه المهمة العظيمة.

• • •

والمتأمل للملائكة وضرورة الإيمان بوجودهم، خاصة فيما نص عليه القرآن الكريم ومادعت إليه سنة رسول الله ﷺ، يلتمس بسهولة مدى ما يتصف به دين الإسلام من رحمة وعدالة، تفوق ما جاء فى كل الأديان السماوية السابقة، رغم أن كل رسالات السماء إلى الأنبياء قد حملها جبريل عليه السلام بإذن ربه.. إلا أن هذا الملاك العظيم، ورسول الوحى لايحظى بالاحترام والتوقير والإيمان به وبأعماله إلا فى دين الإسلام فقط، بل وتظل روح المسلم فى اشتياق عظيم لرؤية الملائكة، وحتى من قبل أن يلقوا ربهم العظيم، وذلك حين يظلون على أمل تحقيق تلك الرؤية فى الليلة المباركة والتى خصصها رب العالمين لظهور هذا الخلق الجميل.. فى ليلة القدر والتى وصفها رب العالمين بقوله: ﴿**ليلة القدر**

خير من ألف شهر.. تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر﴾.

ليس هذا فقط، بل إن ملائكة الله تعالى لا تنسى أبناء آدم فى أهوال يوم القيامة والبعث والحساب..، ولاتنسى الشفاعة لهم، وإنما يعلق الله سبحانه تعالى قبول هذه الشفاعة عليه ويبدو ذلك بوضوح فى قوله تعالى: **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾** سورة النجم الآية ٢٦.

• • •

ولقد بينت لنا تفاسير القرآن الكريم، أن الدين الإسلامى، كان من أكثر الديانات السماوية التى ارتبطت بالملائكة ودورها. سواء فى بث الدعوة عن طريق الوحى أو تثبيت رسول هذه الدعوة بالمعجزات، أو تثبيت أتباع هذا الدين فى معاركهم المتعددة مع الكفر والشرك.

ولقد تجلى ذلك بوضوح فى معركة بدر على وجه الخصوص، ثم توالى بعد ذلك ظهور الملائكة كجنود من عند الله تعالى لمساعدة عباده فى معظم حروبهم ومواقفهم الصعبة مع الشرك والكفر، بل وكثيراً ما نسمع أن الله تعالى ينزل ملائكته لمعاونة عباده فى حياتهم الطيبة، ماداموا على صلة حسنة بالله تعالى ومن خلال أعمالهم الصالحة..

بل واستطعنا كذلك ومن خلال الاطلاع على تلك التفاسير الوقوف على أخص المهام التى وكل بها فريق كبير من الملائكة.. مثل ملائكة الأرزاق وملائكة الرحمة وملائكة الموت.

ولعلها فرصة ليعرف غير المسلم الشىء اليسير عن أشهر ملائكة رب العالمين.. ذلك لأن بقية الأديان وكما مر علينا من قبل خاصة اليهودية، لا تعترف بوجود الملائكة، وبالتالى فهم لا يؤمنون بها ولا بدورها..

ويأتى فى مقدمة الترتيب العام لدور ومكانة الملائكة عند رب العالمين، كما عرفنا ذلك من القرآن الكريم. . جبريل عليه السلام والمعروف باسم جبرائيل فى اليهودية وهو الروح الأمين، وسفير رب العالمين لدى أنبيائه عليهم السلام. . هذا الملاك العظيم كان يأتى سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام فى صفات عديدة . . وقد عبر عن ذلك رسول الله فى قوله عليه الصلاة والسلام: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه الدر والياقوت».

وسبق أن أوضحنا أن رسولنا الكريم قد رأى جبريل عليه السلام فى هيئتين: الأولى عند نزوله بالوحى ليلة القدر، والثانية عند سدرة المنتهى، وقد وصفه رب العزة بعدة صفات ذكرها القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿**علمه شديد القوى**﴾ . . وقوله تعالى: ﴿**ذو مرة فاستوى**﴾، وقوله تعالى فى سورة التكوير: ﴿**إنه لقول رسول كريم**﴾ ثم يأتى ميكائيل عليه السلام فى المرتبة الثانية من مراتب الأنبياء ومقامهم عند رب العالمين. . وفق ما ذكره رب العالمين فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**﴾ الآية ٩٨، وقيل إن سبب نزول هذه الآية وبهذا الترتيب هو ما ذكره اليهود عن جبريل وميكائيل.

وأهم ما يضطلع به هذا الملاك العظيم من مهام وكل بها من رب العالمين هو: المطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق فى هذه الدار، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، حيث يصرّفون الرياح والسحاب كما يشاء رب العزة سبحانه، فما من قطرة تنزل إلا ومعها ملك يقررها فى موضعها فى الأرض[1].

وثالث هؤلاء الملائكة المكرمين إسرافيل عليه السلام والمعروف باسم عبد الرحمن. حيث يقول بعض الفقهاء أن هذا الملك كان أول من سجد من الملائكة فجوزى بولاية اللوح المحفوظ، وهو كذلك أول من يبعثه الله تعالى بعد الصعق لينفخ فى الصور للقيام من القبور، والحضور يوم البعث والنشور.

(١) ملك الموت والأنبياء ـ عبد العزيز الشناوى.

ومن بين هؤلاء الملائكة الكرام المعروفين لكل البشر، نظراً لدوره فى إنهاء حياتهم.. هو الملاك عزرائيل عليه السلام، وهو قابض الأرواح. حيث قال ابن عباس ومجاهد: «إن الأرض بين يدى ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء، وله أعوان من الملائكة يأتون الإنسان على حسب عمله، إن كان مؤمنا أتاه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، طيبة الأرواح.. وإن كان كافراً.. كانت هيئتها غير ذلك»[1].

• • •

ويتبقى لنا من حديث أصول الإيمان التى نص عليها رب العالمين فى كل كتبه.. حديث الكتب المقدسة والرسل والأنبياء.. باعتبارها الختام الطيب لما يجب أن يكون عليه المسلم وغير المسلم، ذلك لأن الله تعالى ما كان لينزل من كتاب أو ليبعث رسولاً إلا لكى يُعبد فى الأرض.. باعتباره الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له ولا ولد؛ مصداقاً لقوله تعالى فى سورة الإخلاص: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾. ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم.. وأشهدهم على أنفسهم. ألست بربكم. قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم**﴾.

وفى تفسير عظيم للإمام الراحل الشيخ محمد متولى الشعراوى لهذه الآية قال: « هذه الآية الكريمة التى أخبرنا بها الله تعالى تدلنا كيف أن الله يوجد فينا بالفطرة رغم أنه فوق قدرة العقل. فقد عرفنا وجود الله يقينا.. هذه المعرفة موجودة فى داخلنا حتى وإن لم يدلنا عليها أحد»[2].

• • •

وبالحديث عن الأصل الرابع من أصول الإسلام وقواعده المتينة والمقصود به

(١) المصدر السابق.

(٢) معجزة القرآن ـ محمد متولى الشعراوى ج (٢).

الإيمان بالكتب التى أنزلت من قبل رسولنا الكريم. . نستطيع الوقوف بالفعل على سماحة ذلك الدين الذى لا ينكر ما جاء قبله، سواء من نصوص أو أنبياء ورسل، وذلك فى مقابل. . موقف أتباع بقية الأديان الأخرى مما جاء بالإسلام. . حيث ينكر هؤلاء الأتباع كل ما جاء به هذا الدين الحنيف سواء فى الشرائع أو العبادات أو المعاملات.

وكما نعرف جميعا. . فقد أنزل الله على رسله ثلاثة كتب سماوية رئيسية. . هى بالترتيب التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن الكريم، ومن قبل نزول التوراة. . ذكر لنا القرآن الكريم فى محكم آياته أن الله تعالى قد أنزل على إبراهيم عليه السلام صحفاً. وكذلك على داود عليه السلام زبوراً.

ولكن كما سبق أن أسلفنا فقد اتضح لنا أن هذه الكتب السماوية خاصة التوراة الإنجيل قد حرفت، وضاعت معالمها الأصلية سواء داخل صدور أتباعهم أو فيما كتبوه بأيديهم، إلا القرآن الكريم، الذى ما يزال على ما هو عليه من كلمات وحروف ومعان كما أنزلها رب العالمين على قلب رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام.

وما حدث لغير القرآن الكريم من الكتب السماوية المشار إليها آنفا، أن عباد الله لم يحافظوا عليها، إذ كلفهم الله بذلك، وقد نسوا حظاً مما ذكروا به، أى أنهم نسوا ما ذكرهم به الله سبحانه وتعالى، سواء بالتحريف أو بتلوية ألسنتهم به. .

ويعلق الشيخ الشعراوى على هذه الجريمة فى حق كتب الله المقدسة من غير القرآن الكريم بقوله: «إذن فتكليف الله سبحانه وتعالى لعباده أن يحافظوا على الكتب السابقة، ولكنهم مع ذلك أدخلوا فيها هوى النفس وأخضعوها للتحريف، لذلك عندما أنزل سبحانه وتعالى القرآن قال: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**. ولذلك يعتبر هذا الكتاب العظيم من معجزات رب العالمين فى الكون. . وكونه على حد قول الشيخ الشعراوى معجزة، فلابد وأن يبقى بهذا

النص، وإلا ضاع هذا الإعجاز، ذلك لأن الله قد جرب عباده فى الحفاظ على الكتب السابقة فلم يحفظوها وحرفوها»[1].

وتلك سمة عظيمة أخرى من سمات هذا الدين الحنيف.. إذ جعل الله معجزته الدائمة فى كتاب حكيم يتلى بالليل والنهار، وقد جعل من قبل لكل من موسى وعيسى عليهما السلام معجزات عينية تناسبت مع ظروف العصر الذى كان يعيش فيه كل من هذين الرسولين الكريمين. فجعل لموسى عليه السلام معجزة التفوق فى السحر، وكذلك جعل لعيسى عليه السلام معجزة الطب.

ولم تقتصر معجزة القرآن الكريم على كونه معجزة لغوية فقط، بل جعل الله تعالى لهذا الكتاب الحكيم عدة معجزات ناقشها وبينها وأوضحها المئات من العلماء المسلمين وغير المسلمين، فقد حدد القرآن الكريم مصدر العلم للبشر، وذلك فى قوله تعالى: ﴿علم آدم الأسماء كلها﴾ كما جعل فيه منهج الحياة. فما من قضية تمس حياة البشر إلا ويوجد لها فى منهج الله وفى القرآن الكريم حلول وعلاج. وما من قضية أساسية من قضايا المجتمع إلا ويعالجها القرآن الكريم[2].

إن هذا الدين الحنيف يتفوق بما حباه رب العالمين بميزات عديدة على غيره من الأديان السابقة، ومع ذلك فهو أول دين سماوى لا يرفض ما جاء بالأديان الأخرى.. سواء من تعاليم أو كتب أو شرائع، بشرط أن تكون صادقة وغير محرفة.

ومن فضل الله تعالى على البشر، أن كشف لهم مناطق التحريف فى الكتب السابقة. ومع ذلك فإن هناك من هؤلاء من الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر، وهم لذلك لا يريدون أن يعترفوا بهذا التحريف. وتلك هى القضية الخطيرة!!.

• • •

وما ينطبق من أحاديث عن الكتب المقدسة كأحد الأصول المهمة والتى يقوم

(١) المصدر السابق.

(٢) معجزة القرآن ـ المصدر السابق.

عليها الإيمان.. ينطبق كذلك على الرسل والأنبياء.. حيث يؤمن بهم جميعا أتباع دين الإسلام.. فى حين نجد أن الآخرين إما يقتلون هؤلاء الأنبياء. أو ينسبون لبعضهم صفة الألوهية، مع أنهم جميعاً بشر خلقهم الله لأداء مهمة مقدسة أساسها هداية البشر لوحدانية الله تعالى، كما أنهم كانوا من أكثر عباد الله الصالحين الذين تحملوا وصبروا على المكاره والأزمات والمشاكل وإيذاء قومهم. حيث وصف الله تعالى بعضهم فى كتابه العزيز، بأنهم أولو العزم من الرسل، وقال المفسرون إن الله قد قصد بهؤلاء عددا محددا ومعينا من أنبيائه، وقالوا إن المقصود من هؤلاء الأنبياء هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام.

وبشكل عام فقد ذكر لنا القرآن الكريم خمسة وعشرين نبياً ورسولاً بالاسم منهم ثمانية عشر وردت أسماؤهم فى أربع آيات متتاليات فى سورة الأنعام، كما ذكر بعض العلماء أن عدد الرسل قد بلغ مائة وأربعة وعشرين ألفاً، هؤلاء أنزل الله عليهم مائة صحيفة وأربعة كتب..

فقد أنزل الله تعالى على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاث صحف وعلى إبراهيم عشر صحائف إضافة إلى التوراة والإنجيل والقرآن.

ولا شك أن الإيمان بكل هؤلاء الرسل وما قاموا به من مهام عظيمة يدخل ضمن الإيمان بالإسلام، بل والإيمان بكل الأديان السماوية، وبدون تفرقة بين رسول وآخر، ولكن هيهات لهذا الإيمان الذى لا يوجد فى الأصل لدى أصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية، وكيف يؤمنون بهؤلاء الرسل، وبعضهم يقتل هؤلاء.. والبعض الآخر يؤمنون بهم كآلهة أو كأنصاف آلهة!!، إلا المسلمون الذين يؤمنون إيمانا يقينيا، لا يشوبه شائبة بأن هؤلاء الرسل إنما هم بشر مثلنا.. وقد أرسل الله بهم لإبلاغ عباده برسالاته عبر السنين والقرون، حتى كان آخرهم محمد عليه الصلاة والسلام.

ونود أن نختم هذا البيان المبين عن رسل الله وأنبيائه من الذين نؤمن بهم ولا نفرق بين أحد منهم، بذكرهم بأسمائهم تعظيماً وتوقيراً لأشخاصهم ولأدوارهم التى تقوم فى الأساس على تبليغ وحدانية الله وبأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له الملك وله الحمد.. وهو على كل شىء قدير..

ولقد سبق لنا القول بأن الرسل والأنبياء الذين جاء ذكرهم بالقرآن الكريم قد بلغوا خمسة وعشرين نبياً ورسولاً وهم بالترتيب خمسة أنبياء قبل إبراهيم عليه السلام: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، ثم يجىء إبراهيم أبو الأنبياء وابن أخيه لوط، ولإبراهيم ولدان كانا نبيين هما: إسماعيل ومن نسله خرج سيدنا محمد ﷺ، ومن اسحاق وابنه يعقوب خرج أنبياء بنى إسرائيل وهم يوسف، موسى وهرون، داود وسليمان، زكريا ويحيى وعيسى. ثم أنبياء اختلفت الأحاديث فى نسبهم أو قل عنهم الحديث وهم، شعيب، أيوب، يونس، ذو الكفل، إلياس، اليسع[1].

• • •

وكما سبق أن ذكرنا فقد وردت بالقرآن الكريم آيات عظيمة تؤكد التزام المسلمين بالإيمان بأنبياء الله جميعا دون تفريق، ومن ذلك قوله تعالى ﴿**وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**﴾ سورة البقرة الآية ١٣٦.. وقوله تعالى: ﴿**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾. وقوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**﴾ سورة النساء الآية ١٥٢.

وفى تعليق مهم للدكتور أحمد شلبى على هذه الآيات، نراه يقول: وواضح من هذه الآيات أن المسلمين يؤمنون بجميع أنبياء الله، أى لا يصدقون ببعضهم ثم لا يعترفون بالآخرين كما فعل اليهود الذين لم يعترفوا بعيسى ولا بمحمد.

(١) مع أنبياء الله الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ـ د. أحمد شلبى. سلسلة المكتبة الإسلامية.

ولا كما فعل النصارى الذين لا يعترفون بمحمد، وعدم الاعتراف بنبى من أنبياء الله هو نكران وتنكر لأمر الله العلى العظيم[1].

(١) المصدر السابق.

الفصل الثانى:

..التسامح الإسلامى.. حتى .. مع أهل الذمة!!

عندما يقرأ أحد المتابعين لنا موضوع هذه الأوراق وما سوف نتلوه فى هذا الفصل من براهين تؤيد سماحة الإسلام دون غيره من الأديان الأخرى وبالذات فيما يخص معاملة أتباع هذه الأديان من الذين نطلق عليهم اسم «أهل الذمة».. سوف يتساءل بحيرة: وكيف نخصص فصلاً بكامل أوراقه وموضوعاته لبيان ملامح ذلك التسامح الإسلامى مع أهل الديانات الأخرى.. مع أن هناك آلافا بل وملايين المواقف التى يستطيع كل ذى عقل راجح أن يتبين سماحة ذلك الدين بخلاف حديث أهل الذمة؟!

وفى الحقيقة.. إنه سؤال على جانب كبير من الأهمية. ولسوف يشعر المتابع لنا أيضا. من خلال الإجابة على ذات التساؤل.. أن حديث علاقة الإسلام والمسلمين بأهل الكتاب أو حتى علاقتهم بأهل الكفر، سوف يبين لنا أكثر مدى تسامح هذا الدين خاصة فى تلك الظروف التى يمر بها الدين الإسلامى فى وقتنا الحاضر، وما يتعرض له من حملات وحروب عنيفة من جانب هؤلاء الأتباع الذين نطلق عليهم «أهل الذمة» أو «أهل الكتاب»!!.

فعلى الرغم من وجود نصوص عديدة فى كتاب الله العزيز وفى سنة نبيه الكريم والتى تحض على حسن التعامل والرفق بأهل الكتاب.. وعلى الرغم من انصياع معظم أتباع هذا الدين، بل وكل هؤلاء الأتباع لما جاء فى هذه النصوص سواء القرآنية أو ماجاء بالسنة، وعلى الرغم أيضا من وجود ملايين المواقف الإسلامية التى تقوم على مبدأ التسامح مع هؤلاء والتعامل معهم بلا تفرقة أو عنصرية.. إلا أن غيرهم من الأتباع من أهل الذمة.. يقفون موقف العداء من هذا الدين، وهم كذلك يرفضون، هذا التسامح في التعامل ليس مع المسلمين

وحدهم، بل ومع أنفسهم أيضا، وقد انقلبوا بذلك إلى أعداء بعضهم ضد بعض!

وما كان منهم على مر الأزمنة من سلوكيات توضح هذا العداء السافر، إلا خير دليل، بل ودلائل قوية تؤكد ابتعادهم عن التسامح وسلوكهم طريق الإرهاب والعنف، فى مقابل هذا الدين الحنيف الذى يتهمونه ظلماً باتهامات نراها فيهم هم ولا نراها فى هذا الدين العظيم.

ولقد كانت وجهتنا دائما فى التعامل مع مثل هذه الموضوعات تعتمد فى الأساس على تقديم الأدلة والبراهين، فى عصر أصبح لا يعترف بالخطابة أو التأثير اللغوى للخطيب، بل يعتمد فيه أصحابه على كل ما هو مثبت بالأدلة، سواء داخل المعامل العلمية أو خارجها.

ولعلها دعوة لكل الذين يكتبون عن الإسلام دفاعاً عنه أو ترويجاً له، بضرورة العودة لتاريخ هذا الدين وانتقاء ما فيه من مواقف وقضايا وموضوعات نقوم فى علاجها وعرضها على الأدلة والبراهين.. والتاريخ الإسلامى العظيم به الآلاف، بل والملايين من هذه المواقف المعلنة، وهى تحتاج فقط إلى الإبراز والنور والأضواء المبهرة.

وهذا يستلزم منا إعادة قراءة ذلك التاريخ، وإعادة الاطلاع على تفاسير القرآن الكريم، لإخراج ما بها وبه من مواقف وموضوعات وقضايا تتصف بالشمولية القائمة على الأدلة والبراهين، وهى وسيلة نعتقد أنها فعالة للغاية فى الرد على حروب الغرب المسيحى ضد الإسلام حالياً، وكذلك دعاوى اليهود بأن هذا الدين يدعو إلى الإرهاب!!

وهناك العديد من الأساتذة الأجلاء من الذين بدأوا فعلاً هذا المشوار الطويل، ونراهم يحاولون من آن لآخر جذب المزيد من زملائهم إلى ذات الطريق، لإنارة المناطق المظلمة داخل نفوس أتباع غير دين الإسلام.

ونعتقد أن دخـول منطقة التسامح الإسلامى مع أهل الذمة، وتقديم الأدلة

والبراهين على تفوق هذا التسامح على ما عداه، سوف يكون له التأثير العظيم والذى نرجوه فى حسم هذه الحرب الشرسة سواء ضد الإسلام أو ضد أتباعه.

ولعل ما نبدأ به هذا المشوار يكون فرصة لمناقشة هذا الجانب والخروج من هذه المناقشة بما نرجوه من فائدة تعم جميع المسلمين وفى كل مكان، كما نأمل أن يستتبع ذلك جهود أخرى على نفس الطريق.

• • •

ولقد رأينا من الواجب أن نبدأ رحلة البحث عن التسامح الإسلامى لدى أهل الكتاب أو أهل الذمة مما سطره العالم اللغوى الكبير الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فيما كتبه عن ملامح عالمية الإسلام.. ونظرة المسلمين لأهل الكتاب كأحد هذه الملامح المهمة، ثم بعد ذلك نفرد الحديث تفصيلا لهذه الملامح أو أكثرها أهمية، فقد أشار الدكتور ضيف أن الله تعالى قد وضع قانوناً عالمياً ملزماً للمسلمين ولغيرهم، مؤداها أن تكون الحرية الدينية مكفولة لجميع الناس فلا إكراه ولا قهر فى الدين لأحد، والتزم بذلك الرسول والخلفاء الراشدون ومن ثم كل أتباع هذا الدين.

كما كانت من ملامح وسمات هذا التسامح، وأيضا من مظاهر عالمية هذا الدين أن فتح الإسلام فى دياره لأهل الذمة جميع أنواع التعايش المادى من زراعة وصناعة وتجارة وأثرى كثيرون منهم ثراء واسعاً تمثله «ماريا القبطية» التى استضافت الخليفة المأمون وحاشيته حين مر بضيعتها فى زيارته لمصر..

وحتى أبواب الدواوين والأعمال الحكومية كانت لا توصد فى وجوههم منذ معاوية وابنه يزيد، وأخذ يتسع استخدام العباسيين لهم منذ القرن الثالث الهجرى، وارتفع بعضهم إلى مرتبة الوزارة فى عهد الدولة البويهية فى العراق وإيران وفى عهد الدولتين الطولونية والفاطمية بمصر.

ومن تتمة هذا التعايش كما يؤكد ذلك الدكتور ضيف فيما كتبه عن عالمية الإسلام مشاركتهم لهم فى أعيادهم وبخاصة أعياد النصارى والمجوس. وكان

أهل الذمة يؤدون للدولة الجزية، ولم تكن ضريبة دينية كما قد يظن، إنما كانت ضريبة دفاع يؤديها وحده القادر على حمل السلاح من الشباب والكهول نظير إعفائه من التجنيد، إذ لم يكونوا يشتركون فى حروب الجيوش الإسلامية، وكانت لا تتجاوز ديناراً واحداً.

• • •

ليس هذا فقط، بل إن التعايش العظيم المتسامح مع أهل الكتاب من جانب المسلمين لم يقتصر على ما سبق بيانه، بل رافق هذا التعايش المادى السديد تعايش فكرى قويم نقل فيه الآخرون إلى المسلمين كنوز العلم والفلسفة عن اليونان وغيرهم من الفرس والهنود.

وسرعان ما استوعب المسلمون هذه العلوم وأضافوا إليها إضافات باهرة، وقد ظلوا جميعا يقودون الحضارة العالمية العلمية الفلسفية ستة قرون من القرن الثانى الهجرى ـ الثامن الميلادى إلى القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى[1].

ولو أعدنا من جديد قراءة ما سبق أن ذكرناه مما سطره الدكتور شوقى ضيف وغيره عن ملامح التسامح الإسلامى تجاه أهل الذمة، سوف نكتشف أن هذا التسامح قد بدت له أربعة مظاهر أساسية هى: الحرية الدينية، الحرية المدنية، التعايش الاجتماعى والتعايش الفكرى.

ولما كان لكل مظهر من هذه المظاهر الأربعة أهمية خاصة لإبراز الجوانب الإيجابية وما أكثرها فى الإسلام، فسوف نتناولها بالتفصيل.. لبيان ما بها من ملامح تسامحية تنبع أساساً من تعاليم هذا الدين العظيم، والتزام أتباعه بالعمل فى ظل هذه التعاليم..

وذلك على النقيض من سلوكيات أهل الذمة الذين لم يراعوا هذا التسامح، وربما اعتبره بعضهم نوعا من الضعف، وبالتالى فقد شجعهم على التمادى فى عدائهم للإسلام، وحقدهم عليه وعلى أتباعه!.

(١) عالمية الإسلام ـ المصدر السابق.

وتلك من عجائب هذا الزمان وما نراه اليوم من دعاوى مغرضة ضد هذا الدين الحنيف، إلا نتيجة مؤكدة للتصورات المريضة لدى أهل الذمة والتى أخذت تنمو وتتفاعل مع العديد من الظروف على مر الأيام والسنين والدهور!

ورغم ما نحن فيه الآن وما هم فيه بالتناقض.. يجب علينا الاستمرار فى بيان ملامح هذا التسامح.. ذلك لأن الله غالب على أمره، وبالتالى سوف تكون الغلبة لدين الإسلام، هذا الدين العظيم، الذى يشتد عوده دائما فى ظل الأزمات والصعاب والنكبات، وهذا دليل آخر على قوة هذا الدين وسيادته وعظمته، لأنه لو كان ديناً هشاً أو جاء على غير أسس لانهار فوراً ومنذ أزمنة طويلة.

• • •

وما كان يجب علينا أن نسرد مظاهر التسامح الإسلامى نحو أهل الذمة، بدون أن نعطى ولو فكرة سريعة عن كنية هؤلاء.. وتاريخ التعامل معهم إنسانياً من واقع ما سطره التاريخ، والذى يؤكد فى كل صفحاته.. أن سماحة الإسلام مع أهل الذمة، قد بدأت ملامحه منذ السنوات الأولى لظهور الدعوة الإسلامية.

وهناك آلاف المواقف الإنسانية التى اتسم بها هذا الدين ونبيه الكريم وكلها تصب فعلاً فى نهر التسامح مع أتباع غير دين الإسلام.

وحتى تكتمل الفائدة كان علينا أيضا أن نغوص فى قلب صفحات ذلك التاريخ المضىء للإسلام لاستخراج ما به من ملامح مطلوب الوقوف على تفاصيلها.

وتبدأ هذه الرحلة مع الكلمات التى نستخرجها من جوف التاريخ للبحث عن كُنية أهل الذمة، ومدلول هذا الاسم الذى مايزال يُعرف بين المسلمين إلى الآن.

لقد ضمت الدولة الإسلامية أعداداً من غير المسلمين من أهالى البلاد المفتوحة من الذين ظلوا على دينهم، وعرفوا فى أول الأمر باسم «الرعية أو الأعاجم»، بمعنى أن العرب كانوا يرعونهم، ولكنهم عرفوا بعد ذلك من خلال كتب الفقه الإسلامى باصطلاح «أهل الذمة».

والذمة هنا تعنى العهد والأمان والضمان، كما هى تقرير بتوطين أهل الكتاب فى ديار الإسلام، وحمايتهم لدخولهم فى عهد المسلمين وأمانهم، وهناك من المؤرخين الذين توسعوا فى تفسير هذا اللفظ بقولهم إن لفظ أهل الذمة كان يعنى فى الأصل أن أصحاب الديانات الأخرى من الذين كانوا ولا يزالون يعيشون فى كنف الإسلام وبلاده، هم فى ذمة أهل الإسلام وأتباعه، من حيث الحماية والرعاية والمعاملة الطيبة الحسنة.

وقد اندرج تحت هذا المسمى فئات عديدة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس الذين اعتبروا ذمة إلى جانب الصابئة وهم (عبدة النجوم) بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى فى معتقداتهم، لذلك كان من حقهم أن يقيموا في بلادهم بناء على معاهدات الأمان أو الصلح أو أنهم خضعوا للعرب بحكم أن بلادهم فُتحت على أيديهم.

وقد تعامل المسلمون مع طوائف أهل الذمة وفق ما حدده القرآن الكريم عن هذه الفئات وتلك الطوائف.. حيث أشار هذا الكتاب العظيم إلى أهل الذمة وحدد طبيعة معاملتهم وعلاقتهم بالمسلمين فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ سورة الحج الآية ١٧.

وفى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ سورة البقرة الآية ٦٢٢.

كما أشارت أحاديث الرسول ﷺ إلى غير المسلمين من خلال اصطلاح أهل الذمة ومنها: «احفظونى فى ذمتى».. وكذلك ما جاء أيضا على لسان الخلفاء من بعده، وكذلك كتب التاريخ التى حفلت بأخبارهم والتى أشارت إليهم بهذا الاصطلاح الذى ظل شائعا فى الدولة الإسلامية على مر الزمن[١].

(١) معاملة غير المسلمين فى الدول الإسلامية ـ د. نريمان عبد الكريم أحمد.

•• الحرية الدينية:

والسؤال الذى يطرح نفسه بقوة في سياق الحديث عن أهم ملامح التسامح الإسلامى مع أهل الذمة.. هو: ما هى الدلائل التاريخية التى يمكن الاستناد عليها.. لبيان أهم ملامح المظهر الأول من مظاهر ذلك التسامح وهو ما أطلقنا عليه اسم «الحرية الدينية».. ؟!

ولاشك أن الوقوف تفصيلاً على تلك الملامح الخاصة والمرتبطة بهذا المظهر المهم من مظاهر تسامح المسلمين مع غيرهم، سوف يساهم كثيراً خاصة بالنسبة لغير المسلمين، وأيضا لبعض المسلمين الغارقين إلى الأذقان فى هموم غيرهم حتى نسوا الدين ونسوا أنفسهم، وبالتالى كادوا يصدقون ما يروجه أعداء هذا الدين عنه وعن أتباعه!!، خاصة إذا ما لجأ المتابعون لنا فوق هذه الأوراق وعبر هذه الملامح إلى عقد مقارنة بسيطة لكيفية التعامل بين المسلمين وبين غيرهم فى ديار غير الإسلام، وعلى وجه الخصوص فى أيامنا هذه، إذ دأب أهل الذمة حتى من المتعايشين مع المسلمين سواء فى بلادهم أو فى بلادنا على النظر إلى المسلمين على أنهم قد اتخذوا من الإرهاب صنعتهم، والعنف منهجهم!.

وقد نسوا بذلك أو تناسوا سماحة هذا الدين وما قدم ويقدم على الدوام لأهل الذمة على اختلاف مللهم ونحلهم!

ولقد سبق لنا القول.. ونحن نعيده الآن ونكرره عدة مرات بأن وسائلنا المشروعة فى الدفاع عن سماحة دين الإسلام، لن تعتمد على الشعارات وترديد الأقاويل والعبارات المفرغة من معانيها.. بل سوف تعتمد على وقائع تاريخية مثبتة فى كل الكتب، سواء العربية أو الأجنبية، وهى للأسف بين أيدينا وأيديهم منذ زمن طويل وإلى اليوم، ولا يكلف أحد منهم نفسه الاطلاع عليها أو معاودة قراءتها ودراستها! وطبعاً الهدف المقصود من ذلك.. معروف!

• • •

إن الحديث عن مدلول الحرية الدينية كمبدأ عالمى وضعه الإسلام، يعبر تعبيراً

عظيماً عن سماحة هذا الدين وتفوقه على بقية الرسالات السماوية، هذه الحرية الدينية جاءت منصوصاً عليها صراحة فى كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بل ودعمتها ما صدر من الرسول الكريم عليه الصلاة السلام وأتباعه فى حق أهل الذمة، وهذا ما سوف نوضحه حالاً وبتفصيل يخدم الغرض الذى نرمى إلى تحقيقه على الفور.

لقد وضع الله جل شأنه فى القرآن الكريم قانونا عاماً التزم به الرسول ﷺ والمسلمون فى جميع عصورهم وديارهم، هو «لا إكراه فى الدين» وبذلك كان الإسلام يكفل دائماً فى بلدانه لجميع الناس شرقاً وغرباً على اختلاف مللهم ونحلهم الحرية الدينية.. فلم يجبر أحداً على اعتناق الإسلام مكرهاً قهراً، بل ترك الناس وما اختاروا لأنفسهم من الدين.

ويقول الله لرسوله فى سورة يونس منكراً عليه شدة حرصه على إسلام المشركين من أهل مكة: **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**.

ومن ثم فقد التزم رسولنا الكريم ﷺ بما أوجبه عليه ربه على حد قول الدكتور شوقى ضيف، فكان لا يكره ولا يقبل أن يكره أحد صحابته شخصا على دخول الإسلام، فمن هداه عقله له وانشرح صدره واستنارت بصيرته له دخل فيه على بينة، ومن أضله عقله وعميت عليه دلائل هداه انصرف عنه[1].

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لا إكراه فى الدين».. نزلت فى مسلم من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان فقال للنبى ﷺ ألا أستكرههما على الإسلام فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه الآية، وأصبحت قانونا مقدساً عند الرسول والمسلمين.

وعن عتاب بن شمير قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إن لى أباً شيخاً كبيراً وإخوة، فأذهب إليهم فعسى أن يسلموا فآتيك بهم، فقال له الرسول : إن

(١) عالمية الإسلام ـ المصدر السابق.

أسلموا فهو خير لهم، وإن هم أقاموا (أى ظلوا على دينهم) فالإسلام واسع عريض، أى دعهم وما يختارون بكل حريتهم.

ويؤكد الدكتور شوقى ضيف فى السياق نفسه أن كتب التاريخ وإلى اليوم لم تذكر أن أى شخص كان يدين بدين إلهى أو وثنى فى الديار الإسلامية قد أُجبر على الدخول فى الإسلام، ذلك لأن من أهم شروط دخول أهل الذمة فى الإسلام، ضرورة أن يعلن إسلامه أمام قاض وشهود، ليثبت أنه أسلم حراً وطواعية، مختاراً لدين الإسلام.

ومما يؤكد ذلك ما كان يحدث فى الأندلس عند دخول أحد النصارى إلى الإسلام، وفق ما ذكره ابن العطار الأندلسى فى القرن الرابع الهجرى حين قال: إنه لابد لإسلام نصرانى أو يهودى فى الأندلس من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم بدون إكراه، وأنه أيضا قد أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو صاحب المدينة أو صاحب السوق أى المحتسب[1].

ولقد ظل هذا التقليد قائما إلى يومنا هذا، وفى كل الدول الإسلامية إذ يشترط لمن يريد الدخول فى الإسلام.. ضرورة إعلان إسلامه علانية، وأمام عدة شهود.. ويكتب هذا الإسلام فى وثائق رسمية يتم إيداعها المحاكم، ويبين فيها هذا الشخص، أو ذاك دوافعه لدخول الإسلام، وأنه قد أسلم طواعية وبدون إكراه.

وهناك آلاف بل وملايين الأمثلة المكتوبة فى كل كتب التاريخ والتى يتضح منها سماحة هذا الدين مع أهل الكتاب فيما يخص حريتهم الدينية، ليس فى اختيار الدين الذى يناسب عقل كل منهم، بل والمحافظة أيضا على معتقداتهم ودور عباداتهم.

هذه الأمثلة ضاربة فى القدم ومنذ سنوات الدولة الإسلامية الأولى.. حيث كان ولايزال دستور دولة النبوة والتى قامت بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها

(١) المصدر السابق.

من مكة [سنة ١ هـ. ٦٢٢م] ينص على ذلك، وهو ما كان يعرف آنذاك باسم مواد الصحيفة أو الكتاب، وقد بلغت نصوص أو مواد هذا الدستور وفق إجماع عدد من المؤرخين ٥٢ مادة، شمل الحديث فى ١٤ مادة عن اليهود والباقى عن كل أصحاب الديانات الأخرى. إذ اعتبر هذا الدستور هؤلاء الرعايا «أمة من المؤمنين» وهم فى ذلك متساوون فى الحقوق والواجبات مع غيرهم من الأنصار والمهاجرين.. إلى جانب تقنين حقهم الكامل فى الاعتقاد الدينى الذى يختلفون فيه مع الإسلام والمسلمين[١].

ويأتى لنا الدكتور محمد عمارة بفقرات من أحد نصوص هذا الدستور فيما يتعلق بالتعامل مع اليهود آنذاك.. والذى ينص فيه على: «.. ويهود أمة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع [أى يهلك] إلا نفسه وأهل بيته، ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا متناحر عليهم، ينفقون على المؤمنين ماداموا محاربين. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من يحارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون إثم».

ولقد استمر مسلك رسولنا الكريم مع اليهود آنذاك على هذا المنهاج، حتى بعد ما بدأوا بالغدر وأظهروا الخيانة..

ثم امتدت الحرية الدينية إلى خارج الجزيرة العربية، ومع كل الفتوحات الإسلامية. التى بدأت منذ عهد الخلفاء الراشدين، هذه الحرية التى قامت فى الأساس على ما جاء بالقرآن الكريم ﴿لا إكراه فى الدين﴾. إذ ترسم الخليفة عمر بن الخطاب فى عهده خطى الرسول ﷺ.. سواء مع نصارى نجران أو نصارى بيت المقدس، وقد أوصى هو الآخر بضرورة وجود نصوص صريحة وواضحة تضمن حرية هؤلاء من أهل الذمة، من ذلك قوله:

(١) الإسلام والآخر - د. محمد عمارة.

«إن كنائس المسيحيين لا تسكن ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها شيء». . وقد التزم الخليفة عمر والمسلمون بذلك ولايزالون على هذا الالتزام إلى يومنا هذا، ليس فقط بالنسبة لدور العبادة الخاصة بالنصارى. بل إزاء معابد اليهود، وبالمثل معابد المجوس عبدة النار فى إيران والصابئة عبدة الكواكب فى شمال العراق. . ونتج عن هذا التسامح فى الحياة الدينية لأهل الذمة إزدهار الأديرة فى العراق والشام ومصر ازدهاراً عظيماً مما جعل كثيرين يكتبون عنها. كما كانت مصر مليئة بالأديرة المشهورة والتى مازالت على حالها منذ إنشائها لأول مرة.

وعندما كان يحدث أحياناً أن يتولى على بلد وال متعصب فيهدم كنيسة أو يهدمها مشاغبون. . فكانت الدولة تسارع إلى إعادة بنائها أخذاً بعهد عمر بن الخطاب وميثاقه لأهل إيليا الذى حرم فيه على المسلمين هدم كنائس النصارى أو انتقاص شيء منها أو من حيزها. ويؤكد الدكتور شوقى ضيف على أهم ملامح الإسلام فى مجال حرية أتباع الأديان الأخرى دينياً بقوله: «وتتمة للحرية الدينية التى كانت مكفولة لأهل الذمة من النصارى واليهود وغيرها أنهم لم يكونوا يتقاضون أمام محاكم الدولة التى تصدر فى أحكامها عن الشريعة الإسلامية، إنما كانوا يتقاضون أمام محاكمهم الملية الخاصة بهم كنسية أو غير كنسية، وكان رؤساء تلك المحاكم الملية يقومون فيها مقام كبار القضاة فى محاكم الدولة»[1].

يأتى ذلك فى الوقت الذى كان فيه الاضطهاد الدينى على أشده سواء ضد اليهود أو المسيحيين أو ضد بعضهم البعض، ولسوف تمر علينا نماذج من هذه الحالات التى امتلأت بها كل كتب التاريخ وفى مختلف العصور!

وما يجب التنويه عنه فى هذا السياق ضرورة القول بأن الحرية الدينية بالنسبة لأهل الذمة لم تتغير أبداً ملامحها من جانب المسلمين على مر كل العصور وإلى يومنا هذا، بدليل. . أن الإنسان حين يتجول فى أية مدينة إسلامية عربية أو غير عربية، يجد المئات من دور العبادة اليهودية أو المسيحية منتشرة هنا وهناك، مع

(١) المصدر السابق.

تجديدها والرعاية بها، بل وزيادتها دوماً، جنبا إلى جنب مع دور العبادة الإسلامية، مثل المساجد.

بل والأكثر من ذلك فإن الحرية الدينية لأهل الذمة قد امتدت بالنسبة للمسلمين ولحكامهم إلى العناية بآثارهم الدينية والحفاظ عليها.. وتبجيلها وما تناله من رعايا الإسلام من احترام دائم.

ومن يقرأ التاريخ بعناية، وبحياد الدارسين الذين يستهدفون الوصول إلى الحقائق فقط! وبعيداً عن التعصب، سوف يكتشف أن تاريخ الإسلام منذ بدايته على عهد الرسول ﷺ وإلى اليوم ومروراً بكل العصور به الملايين من الأمثلة التى تؤيد سماحة هذا الدين فى نظرته لأهل الذمة واحترامه لحريتهم الدينية.

ولا نريد أن نكرر أحاديثنا عما لاقاه ويلاقيه الإسلام وأتباعه، فى حرياتهم الدينية، داخل بلاد النصارى واليهود.. عندما اشتد عودهم وصاروا على قوة تماثل قوة المسلمين.. بل وتفوقت عليها لأسباب عديدة، وما يحدث الآن في كل ربوع أوروبا وأمريكا، ما هو إلا أحد مظاهر التضييق على المسلمين فى حرياتهم الدينية، بكل مظاهرها سواء ما يتعلق بإقامة شعائر هذا الدين أو دور عبادتهم، وطبعا الهدف معروف مسبقا من وراء كل ذلك، وهو محاربة هذا الدين وإجبار أتباعه على التخلى عنه وعن تعاليمه، ولكن الله غالب على أمره. لذلك ليس من الواجب علينا أن نقتدى بهم فيما يضعونه من عقبات وعراقيل لمنع انتشار الإسلام..

ولسوف نظل على ما أمرنا به الإسلام فيما يخص علاقتنا بأهل الذمة، مثلما كان بالأمس.. وما سوف يكون عليه غداً، فلهم دينهم ولنا ديننا.. ولا إكراه فى الدين.

•• الحرية المدنية:

وفقا لما هو سائد اليوم عن مفهوم الحريات المدنية، نجد أن سماحة الإسلام

خاصة فى تعامله مع أهل الذمة.. قد أكدت هذا المفهوم، بل وزادت عليه من خلال تقديم صور عملية لصيانة هذه الحريات وحماية أهلها.

ونحن نعرف أن الحريات المدنية فى عصرنا هذا وفى كل العصر، قد شملت كل ما يخص حياة الإنسان فى شخصه أو فى بيته أو فى متجره أو فى تعاملاته مع الآخرين، إذ لابد أن يكون الإنسان آمنا فى حياته مع الآخرين، مطمئناً لبقية أفراد مجتمعه مادام يتعامل معهم فى حدود القانون، والأخلاق والأعراف، بصرف النظر عن الاختلاف فى الدين أو فى العرق، وهذا ما حرص الإسلام على تحقيقه بكل دقة لأهل الذمة ولغيرهم من رعايا الدول الإسلامية.

وما نود أن نشير إليه أيضا أن الحرية الدينية السابق الإشارة إليها، وهى وكما سوف نكتشف ذلك بعد لحظات لم تكن هى السمة المميزة للدولة الإسلامية سواء الأولى أو فى مختلف العصور.. بل ارتبطت كذلك بالحرية المدنية.. بدليل أن عهود الأمان التى أعطاها الفاتحون الأوائل من المسلمين لرعايا البلاد المفتوحة، قد شملت حماية أموال وممتلكات أهل الذمة فضلاً عن أنفسهم وممتلكات كنائسهم.

ليس هذا فقط، بل كان لأهل الذمة أيضاً شئونهم الداخلية التى تُركت لهم لكى ينظموها كما يشاءون، وقد امتد عدل الإسلام فى نظرته للحرية المدنية لأهل الذمة إلى أحكام القضاء التى سادت بين المسلم والذمى فى قضايا القصاص والديات، كما امتدت عدالة الإسلام ناحية أهل الذمة فى حياتهم المدنية بالسماح لهم بالعمل فى الوظائف والجهاز الإدارى الإسلامى.. إذ من الثابت تاريخياً أن العرب قد أبقوا على النظم الإدارية التى وجدت فى البلاد المفتوحة كما كانت في كل إقليم قبل الإسلام، وظلت هذه الدواوين تحرر بلغة الإدارة السابقة قبل الإسلام فيما يخص ديوان المال والجباية[1]. وكان العمل يجرى فى هذه الدواوين بالفارسية فى إيران واليونانية فى الشام، وفى مصر بالقبطية.

(١) ابن خلدون، المقدمة. ص ٢٤٤.

ويؤكد المؤرخون أن هذه السياسة التى اتخذت فى حق أهل الذمة بالحفاظ على حريتهم المدنية قد بدأت منذ خلافة عمر بن الخطاب، حيث استخدم الولاة فى صدر الإسلام كتاباً من هؤلاء، فكان لأبى موسى الأشعرى والى البصرة فى هذه الفترة كاتب نصرانى، كما ظل استخدام أهل الذمة لدى الخلفاء الأمويين، فاستخدم معاوية بن أبى سفيان النصارى فى مصالح الدولة، فعهد إلى سرجون بن منصور الرومى بخراج دمشق ثم إلى ابنه منصور بن سرجون. كذلك كان كاتبه على خراج حمص نصرانى هو ابن أوثال، وكان لهذا الكاتب قصر يعرف به[1].

كذلك سار الولاة الأمويون على نفس السياسة فى استخدام أهل الذمة، وقد تجلى ذلك فى الاستعانة بالعديد من اليهود والنصارى فى تدوير الجهاز الإدارى فى هذه الأقاليم الإسلامية المفتوحة سواء فى إيران أو الهند أو فى مصر ،حيث كانت حكومة الفسطاط تستخدم أهل الذمة فى إدارة البلاد. فكان هناك كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى فى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر.. كما كان رؤساء المالية قبطاً طوال عصر الأمويين، هذا فضلاً عن استخدامهم حكاما للأقاليم، فكان والى الصعيد فى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان قبطيا اسمه بطرس ولكنه اعتنق الإسلام بعد ذلك، كما كان حاكم مريوط قبطيا اسمه ناوفانس.

وحتى بعد تعريب الدواوين فى خلافة عبد الملك بن مروان عام ٧١هـ ـ ٦٩٥م، كان على أهل الذمة تعلم اللغة العربية لمواصلة وجودهم داخل الجهاز الإدارى الإسلامى. وبالفعل سارع عدد كبير منهم إلى نيل هذا الشرف، وبالتالى فقد استمروا فى وجودهم فى الدواوين وفى غيرها.

وحتى فى الأندلس فقد طبق المسلمون، سياستهم المعهودة فى الإبقاء على النظم الإدارية الموجودة كما حدث فى بلاد الشرق، وبالتالى فقد احتفظوا بما كان فيها من موظفين من أهل الذمة، سواء من اليهود أو من النصارى.

---

(١) معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ـ مصدر سابق.

وتؤكد الدكتورة نريمان عبد الكريم أن نظرة الإسلام للحرية المدنية بالنسبة لأهل الذمة لم تتوقف على الاحتفاظ بهم فى الوظائف الإدارية فقط، بل شمل كذلك الالتحاق بالجيش الإسلامى، وتوضح هذه المشكلة وأصلها بقولها: «معلوم أن الذمى كان يدفع الجزية مقابل حمايته، لأنه لم يشترك فى الدفاع، لأن معنى ذلك الحصول على العطاء الذى يعد حقاً لكل مسلم.. لكن بمضى الزمن سمح لهم بالاشتراك فى الجيش الإسلامى، وربما يكون ذلك مرتبطاً بمشاركة الذميين للمسلمين فى الدفاع وعدم دفع الجزية، ففى مصر وخلال عصر الولاة كان ملحقاً بالجيش الإسلامى طائفة تسمى المطوعة، ربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا فى جيش مصر أثناء الفتح العربى لها. كذلك سمح الأمويون بتجنيد أبناء البلاد المفتوحة للاشتراك فى المعارك شرقاً وغرباً، كما تولى أهل الذمة إمرة الجيش الإسلامى فى بعض الأحيان مما يؤكد التسامح الذى أعطى لهؤلاء، وإعطاء الفرصة للوصول إلى أرقى المناصب»[1].

ويمتد عطاء التسامح الإسلامى فى مجال الحرية المدنية لأهل الذمة، حيث يصل إلى مداه بالسماح لهؤلاء بالعمل باقتصاد الدولة الإسلامية، سواء من خلال اشتغالهم بالتجارة الخاصة بهم أو تولى تجارة الدولة الإسلامية نفسها، فقد أتاحت الدولة الإسلامية لأهل الذمة المشاركة فى الحياة الاقتصادية بما كفلته لهم من حقوق وواجبات وحريات، كما ساعدت فترات الازدهار الاقتصادى التى شملت مختلف النواحى فى مختلف العصور الإسلامية من تألق هؤلاء فى هذا المجال.

وقد شهد هذا الميدان أنشطة متعددة لأهل الذمة وهم تحت رعاية الدولة الإسلامية. من ذلك ما قررته الحكومات الإسلامية على تعاقبها مبدأ الحيازة والملكية للفلاحين كافة.. كما وضعت الضوابط التى تحافظ على أرض الذمى مثل المسلم.

---

(١) المصدر السابق.

كما شمل هذا التسامح التعاون مع أهل الذمة والاستفادة بخبراتهم المختلفة فى العديد من المجالات الاقتصادية الحيوية.

ليس هذا فقط، بل إن سياسة الرفق التى اتبعتها الدولة الإسلامية، فيما أصدرته من قرارات ضريبية شملت مختلف أوجه النشاط الاقتصادى، قد دفعت هؤلاء الذميين إلى المشاركة الفعلية فى الحياة الاقتصادية وفى الضرائب التى فرضت عليهم من خراج وجزية لم تثقل كاهلهم، كما أنهم كانوا لا يدفعون ضرائب على مواشيهم.. كما تساووا مع المسلمين خاصة من العاملين منهم فى مجال التعدين فى الضريبة المفروضة عليهم[1].

ويحدثنا المؤرخون كذلك عن أهم الأنشطة الاقتصادية التى شهدت الحرية المدنية بالنسبة لأهل الذمة، والتى يأتى فى مقدمتها التجارة، حيث أتاحت لهم حرية الانتقال داخل العالم الإسلامى الإبداع فى هذا الميدان.. والوصول إلى أقصى درجات الثراء.

كذلك لعب أهل الذمة دوراً ملموساً فى العمل بالصيرفة، كما ازداد احتكارهم لهذه الوظيفة خلال القرن الرابع الهجرى بسبب ما شهده العالم الإسلامى من انتعاشة على الصعيد التجارى، حيث شارك النصارى واليهود فى هذا العمل، وبالتالى ازدادت أعدادهم مع مرور الأيام. ولايزال هؤلاء على إجادتهم لهذه الحرفة، إلى يومنا هذا.

وقد يظن البعض أن ملامح الحرية المدنية التى تمتع بها أهل الذمة فى ظل سماحة الإسلام وحكامه ورعاياه.. قد اقتصرت على الأغنياء منهم من المشتغلين بالتجارة وغيرها فقط، بل بالعكس، فقد كشف لنا التاريخ.. أن هناك طوائف عديدة ومختلفة من أهل الذمة قد تمتعوا هم كذلك بهذه الحرية حيث كانت أبواب جميع أعمال المعيشة مفتوحة لأهل الذمة فى كل العصور الماضية ولازالت.

ويقول الجاحظ: العامة فى العراق كانت تأنس للمسيحيين خاصة وتؤثرهم على المجوس، ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود.

---

(١) المصدر السابق.

ويقول أيضاً أنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والطب، حيث كان منهم أطباء الخليفة والوزراء وعلية القوم آنذاك وأطباء البيمارستانات، حتى استقر فى نفوس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحياً، كذلك كان منهم كبار المترجمين للثقافة اليونانية، وقد نال مترجموها من السريان أموالاً ضخمة من الخلفاء.

ويقولم المقدسى، فى القرن الرابع الهجرى كان منهم الخياطون والصباغون والأساكفة والخرازون.

وكان القبط فى مصر يعيشون غالباً على الزراعة كما تُرك لهم الإشراف المالى على شئون الخراج وضرائب الأرض والمزروعات، وظل لهم ذلك وحدهم على حد قول الدكتور شوقى ضيف طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينات من القرن الماضى، مما يصور بوضوح اكتمال المودة والتآلف بين المسلمين والقبط فى مصر طوال العصور الإسلامية.

•• التعايش الإجتماعى:

وتلك صورة أخرى من صور التسامح الإسلامى مع أهل الذمة.. وهى تشمل ذلك التفاعل العظيم بين إنسانية أتباع هذا الدين وبين غيرهم من المخالفين لهم دينياً وعقائدياً فى أسمى صوره.. والمتمثل فى هذا العطاء الدائم والمستمر اجتماعياً بين كل الناس وبدون تفرقة سواء دينية أو عنصرية.

هذا التفاعل الذى شمل كل نواحى الحياة، إلى درجة وصلت إلى حد الترابط والتلاحم الذى كان كثيراً ما يظهر وقت الشدة والأزمات.. ولولا إحساس أهل الذمة بالحب والتعاطف والمحبة والتسامح من جانب أقرانهم من الرعايا المسلمين.. لما رأيناهم وعلى مدى أحداث التاريخ كله، فى مقدمة المدافعين عن المصالح العامة.. إلا القليل منهم من أصحاب الهوى من الذين كانوا ولايزالون يميلون إلى أقرانهم من أصحاب الديانات الأخرى، إما حسداً وإما حقداً على ما يناله غيرهم من أهل الذمة من رعاية غير مسبوقة من جانب المسلمين.

ولقد أثبتت حوادث التاريخ فى كل بلد من البلدان الإسلامية عمق الروابط بين إخوانهم، الأمر الذى كان يجعل منهم خير معين لهم فى أوقات النوائب والشدائد..

وتاريخ مصر على وجه الخصوص به آلاف المواقف التى تجلت فيها تلك العلاقات الأخوية والاجتماعية بين رعايا مصر من أهل الذمة ورعاياها من المسلمين.

إن هذه العلاقات المتينة والروابط الاجتماعية الأخوية بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الذمة.. لاشك كانت نتاج ما ناله الذميون من حقوق وحريات فى المجتمع الإسلامى، عرفت باسم «حق المواطنة» والذى يمثل الإطار التطبيقى لما جاء فى هذا الدين الحنيف من تعاليم سامية تدعو إلى بناء مجتمع على أساس من العدالة الاجتماعية، بعيدا عن الظلم الاجتماعى. ولقد استند هذا النظام فى الإسلام على القواعد الأساسية للإسلام من عدل ومساواة[1].

وحينما نعود بالتاريخ إلى الوراء حيث بداية الدولة الإسلامية فى عهد رسولنا ﷺ نجد أن حق المواطنة المشار إليه آنفا قد شمل كافة الحريات التى أتيحت لأهل الذمة، بداية من عصر الرسول ﷺ والذى طبقه على النصارى واليهود فى أرض الحجاز ثم على المجوس عن طريق الجزية والتى بمقتضاها أصبح الذميون رعايا من أبناء الدولة الإسلامية.

هذا الحق قد أتاح لهم فى هذه الفترة المبكرة من حياة الدولة الإسلامية ممارسة مختلف أوجه الحياة العامة فى المجتمع الإسلامى باعتبارهم أعضاء مؤثرين فى هذا المجتمع فساهموا كما سبق أن أوضحنا فى الحياة الاقتصادية.

وبديهى أن ينعكس ذلك على كل مظاهر الحياة الاجتماعية آنذاك. كما ساهم ذلك كثيراً فى نشأة كثير من العلاقات الاجتماعية المتميزة بينهم وبين المسلمين،

---

(١) نظام المواطنة فى الإسلام ومنجزاته للحضارة العربية ـ بحث عن تاريخ الحضارة الإسلامية ـ إبراهيم العدوى.

إضافة إلى تمتعهم بمكانة اجتماعية أتاحت لهم تكوين الثروات، وحرية الاحتفال بأعيادهم الخاصة[1].

وكما نعرف جميعاً.. فإن هذا التفاعل الاجتماعى لم يقتصر على عصر الدولة الإسلامية الأول.. بل بالعكس فقد ازداد بقوة عبر العصور، خاصة عندما أنس أصحاب البلاد المفتوحة إلى الفاتحين من أهل الإسلام ولمسوا فيهم التسامح والمحبة والإخلاص، والحب لهم ولكل ما يرتبط بهم، ولاتزال تلك الروابط قائمة إلى يومنا هذا، ونحن نراها تزداد وتقوى رغم ما يعتريها فى بعض الأحيان من خمول.. نظراً لتعرضها لبعض الضغوط الخارجية من رؤساء وأصحاب القوة من أهل الذمة، وما نراه اليوم من ادعاءات باطلة عن ارتباط الإسلام بالإرهاب، رغم هذا التسامح، ما هو إلا نوع من هذا الخمول والخمود! والذى سرعان ما يزول ويذوب.

والشىء الذى يثلج صدور كل المتابعين لنا فى الحديث عن تسامح الإسلام مع أهل الذمة اجتماعياً.. أنهم لم يكونوا يعيشون فى مجتمعات خاصة بهم داخل المجتمع الإسلامى.. فلم يوجد فى المدن الإسلامية أحياء خاصة باليهود والنصارى إلا فى النادر القليل، وقد سكنوا مع المسلمين جنباً إلى جنب، بل وكثيراً ما نرى أصحاب الديانات الثلاث يسكنون بجوار بعضهم البعض سواء فى منزل واحد أو شارع واحد، وهذا نابع فى الأساس من رغبة المسلمين أنفسهم، حيث لم يشأ العرب الفاتحون أن يجعلوا أهل الذمة جماعة منبوذة داخل المجتمع الإسلامى.

ليس هذا فقط، بل لقد امتد اهتمام حكام الدولة الإسلامية بأحوال أهل الذمة إلى الرعاية الاجتماعية شأنهم فى ذلك شأن كل رعاياهم من المسلمين.

وفى ظل هذا التسامح وهذه الرعاية فقد تمتعوا بالمظلة الاجتماعية وتطبيق التكافل الاجتماعى عليهم وعلى طوائفهم مثل المسلمين وبدون تفرقة.

---

(١) المصدر السابق.

وهناك العديد من الآيات القرآنية التى حضت على هذا التعايش الاجتماعى بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الذمة. من ذلك قوله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ سورة الممتحنة الآية ٨.. وقوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾.

وكذلك هناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة، والمواقف النبوية المشهورة والتى تبرهن دوماً على فاعلية هذا التعايش الاجتماعى بين المسلمين وأهل الذمة.

فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويشيع جنائزهم ويزورهم ويكرمهم، وذلك وفق ما سجله ابن القيم الجوزية فى كتابه «أحكام أهل الذمة»..

وروى كذلك أنه مرت جنازة أمام رسول الله ﷺ فقام لها تعظيماً، فقيل له: إنها جنازة يهودى، فقال: «أليس إنساناً».

كما روى أنه لما زاره عليه الصلاة والسلام وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته الشريفة وأجلسهم عليها.. وكذلك أوصى الجار المسلم بأن يحسن إلى جاره غير المسلم، وأجاز التعامل معهم فى البيع والشراء.

•• التعايش الفكرى:

ولما كان دين الإسلام فى الأصل قد بنى على العلم والمعرفة مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿**علم آدم الأسماء كلها**﴾ وقوله تعالى أيضا: ﴿**إقرأ باسم ربك**﴾ فقد كان لابد أن يمتد هذا التسامح مع أهل الذمة إلى نواحى الفكر والمعرفة والعلوم والفنون والآداب.

وفى تعليل مهم كتبه الدكتور شوقى ضيف عن أسباب انتعاش التعايش الفكرى بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الذمة؛ رأى فيه أن ذلك يرجع إلى ما أحدثه الإسلام من امتزاج عظيم بين المسلمين وغيرهم، لما رأوا فى عقيدته البساطة واليسر وفى شريعته من إخاء ومساواة، مع محو جميع الفروق الطبقية والاجتماعية بين الأفراد فى الأمة الواحدة.

هذا الامتزاج القوى الذى حدث بفعل التسامح الإسلامى.. جعل الكثرة الكثيرة من شعوب الأمم المفتوحة يعتنقون الإسلام، وأن من ظلوا على دينهم يشعرون تجاه المسلمين وحكامهم بأخوة كريمة حتى لتراهم يرحبون برغبة إخوانهم المسلمين لا فى التعرف على المعارف التطبيقية المفيدة فى تخطيط المدن وعمارة المبانى واستغلال الأرض فحسب، بل أيضا فى التعرف على المعارف النظرية البحتة[1].

وكانت الثقافة المنتشرة آنذاك فى تلك البلاد المفتوحة هى الثقافة الهلينية، وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية أخرى..

وبحكم ما بثه الإسلام فى نفوس أتباعه من العرب من شغف بالعلم والمعرفة، فقد أخذوا على عاتقهم منذ نجاحهم فى فتح هذه البلدان فى التعرف على هذه الثقافات والأخذ بها، ثم التفاعل معها والمزج بينها وبين الثقافة العربية.

ولقد بدأت هذه الخطوة بتشجيع المسلمين للترجمة من كل اللغات الأجنبية المعترف بها آنذاك، والتى قام بها قطاع كبير من أهل الذمة.

ولم تتوقف هذه الترجمة عند فرع بعينه من فروع المعرفة. بل شملت كل ألوان المعارف.. ثم بدأت خطوة أخرى أكثر أهمية من خطوات الترجمة، تمثلت فى العكوف على دراسة هذه العلوم ثم الأخذ بأعظم ما فيها.. والإضافة إليها، خاصة فى مجالات الطب والعلوم والرياضيات، وقد نبغ علماء عرب

(١) د. شوقى ضيف ـ المصدر السابق.

كثيرون فى هذه المجالات ونالوا شهرات عالمية، كما لايزال التاريخ يحظى بالحديث عن إسهاماتهم فى هذه العلم، جنباً إلى جنب مع علماء أهل الذمة.

ويرى المؤرخون أن أكثر سنوات ذلك التفاعل الفكرى بين المسلمين وبين أهل الذمة قد بدت بوضوح فى عهد هارون الرشيد ووزرائه من البرامكة، إذ أنشأ لترجمة العلوم الأجنبية مؤسسة أسماها دار الحكمة. وتعاون معه فيها كبار السريان المستعربين الذين كانوا يحسنون اللغة العربية، واختار لرئاستها نصرانى يدعى «يوحنا بن ماسويه» وكان طبيباً نسطورياً استطاع عن طريق الاستعانة بغيره من النصارى من العلماء والأطباء نقل آلاف الكتب العلمية إلى اللغة العربية.

كما بلغت هذه الموجة الحادة من التعايش الفكرى بين المسلمين وبين أهل الذمة أقصى غاياتها فى عهد المأمون بن الرشيد، إذ حول دار الحكمة لأهل بغداد إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً يختلفون إليه، وألحق به مرصداً فلكياً مشهوراً، كما أخذ فى إرسال البعثات العلمية إلى نواحى وبلاد كثرة، وكان من بين أعضائها أيضا فريق كبير من أهل الذمة.

وهناك مئات الأسماء من أبناء النصارى واليهود من الذين لمعوا فى ميادين العلم والطب بالتعاون مع العرب المسلمين، مما كان له أكبر الأثر فى ظهور علماء مسلمين نابغين فى مختلف هذه العلوم مثل ابن سينا والفارابى وجابر بن حيان وآخرين من علماء المسلمين الذين وضعوا أسس الكثير من العلوم التى لايزال صداها ماثلاً أمامنا وأمام العلماء فى الغرب إلى يومنا هذا.

ولم يقتصر هذا التعايش الفكرى بين المسلمين وأهل الذمة على العلوم التجريبية والطب والرياضيات فقط، بل امتد كذلك إلى علوم الكلام مثل الفلسفة وعلوم اللغة والتى قامت فى الأساس على المناظرات والمحاورات والمجادلات التى كانت تصور فعلاً تعايشاً فكرياً إلى أبعد الحدود، وقد ازدهرت

على حد قول الدكتور ضيف بفضل عالمية الإسلام الذى وسع فى دياره كل الملل والنحل إلهية وغير إلهية متعاملاً معها على قدم المساواة.

• • •

وما نريد أن نؤكده فى هذا السياق أن التفاعل والتعايش الفكرى بين المسلمين وبين أهل الذمة لم يتوقف لحظة من عمر الزمن، بل واصل مسيرته وبقوة على مرور الأيام والسنوات، مع ازدياد إحساس هؤلاء الذين لم يكونوا يدينون بدين الإسلام بسماحة هذا الدين وأهله، وفى ظل بقية ما كانوا يتمتعون به من حريات سواء دينية أو مدنية وما كانوا ينعمون به من رعاية اجتماعية على قدم المساواة مع غيرهم من رعايا المسلمين.

ولا شك كانت المحصلة النهائية لهذا التفاعل العظيم بين المسلمين وبين أهل الذمة فى مختلف المجالات قيام حضارة عظيمة نشر خلالها الإسلام أجنحته في كل فروع الحياة بما يفيد الإنسان نفسه، بصرف النظر عن الدين أو العرق.

هذه الحضارة التى استمدت كل مقوماتها سواء العلمية أو النظرية أو التطبيقية من تعاليم الإسلام ونصوص آياته القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة. وقد نعم خلالها كل رعايا وأبناء الدولة الإسلامية بالحب والحرية والإخاء والمساواة؛ بما لم ينعموا به من قبل فى ظل أية دولة أخرى أو ديانة أخرى، وذلك حديث آخر سوف نخصص له كل أوراق الفصل القادم.

الفصل الثالث:

قبس من أنوار الحضارة الإسلامية.. شرقاً وغرباً

إنها كذلك سوف تكون فقط.. ومضات نورانية من أسرار الحضارة الإسلامية، أو هى قبس من أنوارها.. كما يشير إلى ذلك عنوان الفصل.

والسبب فى ذلك أن حديث هذه الحضارة وإنجازاتها منذ انطلاق صيحة الحق بالإسلام وبزوغ نوره فوق ربوع مكة والحجاز، لن يوفيه حقه كل هذه الأوراق.. باعتبارها أعظم حضارة إنسانية استهدفت حياة الإنسان ورفاهيته والعمل على تقدمه ورقيه وسعادته بعيداً عن كل ما يعرضه للأزمات أو الحروب، إلا ما فيه مصلحة ذلك الإنسان بصرف النظر عن اختلاف العقيدة. وتلك صفة تنفرد بها الحضارة الإسلامية دون غيرها، لأنها حضارة قوامها العلم والأخلاق ولذلك نراها قد استهدفت الإنسان بذاته وسلطانه، وماضيه وحاضره ومستقبله، مهما اختلفت عقيدته، أو وطنه أو وضعه الاجتماعى..

ونراها فى هذا الشأن قد استفادت من غيرها من الحضارات، كما أضافت بالتالى إليها الشىء الكثير.. وكان محركها الأساسى هو دين الإسلام، ذلك الدين الذى اختاره رب العالمين لسعادة الإنسان فى الدارين، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة!

وقد يتساءل البعض، ولهم الحق فى ذلك: إذا ما كانت تلك هى مقومات الحضارة الإسلامية، فلماذا إذن لم تستمر طويلاً؟!.. أو تتفوق على الحضارة الأروبية الحديثة؟

إن الإجابة على هذا التساؤل طويلة وعظيمة.. ولا مجال لها فوق هذه الأوراق، لكننا مع ذلك سوف نحاول الاقتراب من بعض ملامحها بالقدر الذى

تسمح به المساحة المتاحة من أوراق ذلك الفصل الذى هو بين أيدينا كختام لهذه الرحلة الطويلة..

• • •

إن تراجع الحضارة الإسلامية، وبدون الدخول فى مناقشات جانبية قد تفسد ما نرمى إليه.. كان سببه الأساسى هو تراجع أصحاب هذا الدين عن تعاليم دينهم، والجرى وراء كل ما كان يبعدهم عنه، تقليداً لأصحاب تلك الديانات.. من الذين قذفوا بدينهم خلف ظهورهم!.

ولأن حضارة العرب والإسلام، قد قامت فى الأساس على قواعد من الدين الإسلامى فإن الابتعاد عن تلك القواعد.. بل والعمل على هدمها، كان من أهم هذه الأسباب التى أدت إلى تراجع تلك الحضارة.

ولكل صاحب عقل راجح فرصة لكى يبحث عن هذه الأسباب والتى سوف يجدها فى أسباب نهضة الحضارة الأوروبية ذاتها، عندما أخذت بأسباب الحضارة الإسلامية وأصولها ثم أضافت إليها، وأيضا وفقا لتصورات الإنسان المسلم سواء فى الدين أو فى الدنيا.

وهناك ملايين الأدلة التى تثبت لهؤلاء العقلاء.. أن حضارة الغرب، قامت بالفعل على القواعد المتينة لحضارة الإسلام. مع شىء من الإضافات المبهرة، والتى اعتمدت فى الأساس على عبودية الإنسان للمادة، وعشقه للدنيا وابتعاده عن الآخرة، ولذلك نحن وغيرنا نراها حضارة هشة.. حيث قامت فقط على الجانب المادى فى حياتنا، وبالتالى فقد أهملت الجانب الروحى، على عكس الحضارة الإسلامية التى نجحت فى تحقيق تلك المعادلة الصعبة والتى استهدفت صالح وحياة الإنسان، فى ظل تحقيق سعادة غامرة، وعالم يعيش فيه بلا مشاكل أو اضطرابات.

• • •

إن الحديث عن الفروق الكثيرة والكبيرة بين حضارتنا الإسلامية وغيرها من الحضارات الإنسانية سواء القديمة أو الحديثة.. خاصة الحضارة الأوروبية أو الأمريكية الحالية، يطول ويتشعب، بما يخرجنا ربما عن موضوع تلك الأوراق، ونحن نريد أن نبعث الطمأنينة فى نفوس المتابعين لنا.. حيث نقول إن الإجابة على السؤال السابق، سوف يجدون صداها بقوة فى الحديث عن الحضارة الإسلامية والتى سوف نتناولها من مختلف الزوايا وذلك قبل أن نستعرض بعض أقباسها المنيرة، والتى يتمتع بها الإنسان الآن ومنذ زمن بعيد.

• • •

ولقد رأينا فى هذا السياق أن حديث قبس هذه الحضارة لا يمكن أن يكتمل بدون الحديث عن أشياء وموضوعات وقضايا ارتبطت كثيراً بالحضارة الإسلامية مما جعلها أكثر تميزا عن غيرها من الحضارات سواء السابقة أو اللاحقة.

وكذلك فقد كان لزاماً علينا مثلاً أن نتحدث عن مفهوم الحضارة، وهل تغير ذلك المفهوم عما كان يدعو إليه الإسلام من واقع لابد من تحقيقه كهدف أساسى لصالح الإنسان، بصرف النظر عن دينه أو عرقه.

وكذلك كان لابد لنا أيضا أن نتحدث عن أصول وقيم الحضارة الإسلامية، بما يوضح لنا أهم الفروق التى جعلت من تلك الحضارة ذات أصالة لا يمكن تكرارها مهما تعددت الثقافات أو اتحدت.

ثم أخيراً كان علينا كذلك ضرورة الحديث عن المنتج الحضارى الإسلامى وأهميته، وموقعه ودوره فى خدمة الإنسان. من منطلق أن هذه الحضارة وكما وصفها الدكتور محمود حمدى زقزوق هى فريضة إسلامية شأنها فى ذلك شأن الفرائض الأخرى مثل الصلاة والصوم وخلافه.

ولذلك فإن العمل من أجل التعريف بتلك الحضارة ودورها، بل ومحاولة بعثها من جديد إنما يندرج تحت مفهوم عبادة الله سبحانه وتعالى. ولسوف يكون مسك ختام هذا الحديث.. بيانا سريعا لأهم رواد هذه الحضارة، ونحن نذكرهم

بكل الخير هنا على سبيل إنعاش الذاكرة الإسلامية، وبالتالى محاولة تقليد أدوارهم فى صنع تلك الحضارة، بدلاً من تقليد رواد الحضارات الأخرى.

•• مفهوم الحضارة:

مما لاحظناه فى مسيرة تتبعنا الواعى لتاريخ الحضارة الإسلامية، أن هناك بعض المستشرقين، سواء قديماً أو حديثاً. يصرون إصراراً غريباً على إنكار الحضارة الإسلامية ووجودها بالمرة!!. ولاشك أن ذلك ينبع فى المقام الأول من تلك النظرة التعصبية البغيضة لكل ما هو إسلامى أو عربى.

والغريب، ورغم ما قدمته تلك الحضارة العظيمة من خدمات جليلة للإنسانية على مدى عدة عصور، إلا أن هؤلاء المستشرقين وبعض أشياعهم للأسف من المسلمين.. يتصورون إلى حد اليقين أن المسلمين لم يكونوا فى زمن من الأزمنة أصحاب حضارة، بل هم فقط من الذين نقلوا تلك الحضارة عن غيرهم!!.

ولهم فى هذا الرأى عدة استنتاجات يلجأون إليها كثيراً لتأييد وجهة نظرهم تلك. فهم يشيعون دائماً أن هذا الدين قد نزل فى بيئة صحراوية، لم يعرف أصحابها شيئاً عن المدنية، وذلك على عكس ما كان بالنسبة للديانتين اليهودية والمسيحية، حيث ظهرتا فى بيئة مدنية كانت متصلة بحضارات أهل ذلك الزمان!

وهناك ردود علمية وعملية كثيرة استطاع علماء من المسلمين تقديمها كدفاع ضد هذه الآراء المغرضة، ولعل من أقربها فهماً إلى عقل هؤلاء، أن العرب وكما يقول بذلك تاريخ الإنسانية، كانوا كقبائل منتشرة فى الجزيرة العربية، قد اضطروا فى بعض أزمنة القحط والجدب.. إلى الهجرة خارج هذه الجزيرة، على الحدود المتاخمة للمدن خاصة المطلة على بلاد الشام والعراق.. بل إن هناك قبائل عربية كثيرة أخرى قد استوطنت تلك البلاد.. وتفاعلت مع سكانها الأصليين سواء، من المتصلين آنذاك بالحضارة الرومانية أو الفارسية..

ولاشك كان من هؤلاء العرب بعض الذين شاركوا فعلاً فى صنع هذه الحضارات، وتاريخ الإنسانية به الآلاف من النماذج العربية الأصل والتى لعبت دورها العظيم فى إنعاش تلك الحضارات بالقيم والمبادئ العربية المعروفة.

وهناك من المؤرخين الذين يرون.. أن معظم سكان الشام والعراق، إنما جاءوا من صلب هذه القبائل التى هاجرت من أرض الحجاز فى فترة زمنية مبكرة.. هذه واحدة. أما الثانية فإن سكان هذه الجزيرة الصحراوية ومن الذين بقوا بها حتى ظهور الإسلام.. إنما كانوا على اتصال دائم بأهل تلك المدن وأصحاب هذه الحضارات. ويشهد بذلك التاريخ نفسه، وما رواه من وقائع ارتبطت بتلك الرحلات التجارية والاقتصادية التى شهدت ذلك الاتصال الدائم بين عرب الجزيرة العربية.. وأهل الشام ومصر والعراق وبلاد فارس.. مما كان يعنى وجود تفاعل مستمر بين العرب آنذاك وبين غيرهم من أهل الحضر فى تلك البلدان. وقد شهد هذا التفاعل وكما سبق أن ذكرنا العديد من الصور الحضارية الراقية؛ ولم يتوقف فقط عند حاجز التجارة والاقتصاد.. بل كان هناك تعاون وثيق بين العرب وبين جيرانهم فى مجالات الطب والعلوم والحساب والفلك.

وهناك آلاف الأمثلة على وقوع هذا التعاون.. نذكر منه مثالاً واحداً عاصره رسول الله ﷺ.. وذلك عندما تصدعت جدران الكعبة قبل ظهور الإسلام بسنوات.. بفعل السيول والأمطار الغزيرة التى هطلت على شبه الجزيرة فى هذه الآونة! فما كان من أهل مكة إلا الاجتماع على ضرورة هدم تلك الجدران ثم إعادة بنائها من جديد.

وقد شجعهم على ذلك عثورهم على أخشاب لإحدى السفن الغارقة فى البحر الأحمر وبالقرب من مدينة جدة، وبعد المشاورات قرروا استغلال تلك الأخشاب فى إعادة هذا البناء، ورفع قواعد البيت العتيق وتسقيفه بتلك الأخشاب.

وكان لهم ما أرادوا.. حين استعانوا بأحد المهندسين أو البنائين اليهود من

الذين كانوا يقيمون خارج الجزيرة العربية، واسمه «نسطور» للمشاركة فى إعادة بناء الكعبة..

فعلى الرغم من الادعاء بأنهم كانوا أمة بدوية، وهمجية على حد قول أحد المستشرقين المغرضين، إلا أنه كانت لها كل تلك المقدرة على استقدام الخبراء والاستعانة بهم فى تصريف بعض شئونهم!.

وهناك بخلاف ذلك آلاف الأمثلة الحيوية والتى تبرهن على استعداد العرب الحضارى ثقافيا وعلميا وفكرياً وفنياً، وقد جاء الإسلام كدافع عظيم لهم للسير فى طريق تلك الحضارة متخذين من تعاليمه النبراس المضىء، والذى أنار لهم ذلك الطريق للسير فيه إلى نهايته.

هذا الامتزاج بين العروبة وبين الإسلام، قد قدم للإنسانية أعظم حضارة عرفتها البشرية، وفى كل المجالات، وكانت بالفعل حضارة متميزة عن غيرها من كل الحضارات.

ولا شك أن التنويه عن هذا الخطأ العظيم الذى وقع فيه ولايزال فريق كبير من المستشرقين.. كان ولابد منه كبداية للدخول فى الحديث عن مفهوم الحضارة، التى عرفها العرب والمسلمون، مع انطلاقة أول كلمة من الوحى الذى نزل به جبريل الأمين عليه السلام حين بلغ عن رب العزة رسوله الكريم ﷺ: **«إقرأ باسم ربك الذى خلق»**.

ومما يؤكد ما توصلنا إليه بشأن تأصل ذلك المفهوم الحضارى عند العرب حتى من قبل نزول الإسلام ما أشار إليه الدكتور محمد الجوهرى فى قوله: «إن لفظ الحضارة من الألفاظ التى كانت معروفة عند العرب منذ القدم، وهى تعنى الإقامة في الحضر وهى المدن والقرى والريف، وهى غير البداوة التى تعنى الترحال والتنقل، وهذا يعنى أن الحضارة كانت تعنى الإقامة فى المساكن المبنية من الطين والحجر والأرض المنزرعة حول الأنهار والآبار، مع ما يترتب على تلك الإقامة

من التعاون والتآزر وتبادل الأفكار والمعلومات والرقى المادى والمعنوى فى الأخلاق والطباع والعقائد ووسائل الحياة المختلفة»[1].

• • •

ولقد شغل هذا المفهوم علماء كثيرين من العرب ومن غيرهم، وعلى رأسهم كل من ابن خلدون وول ديورانت. . حيث اجتهد كل منهما مع فريق آخر من أتباعهم من العلماء فى تفسير هذا المفهوم ومعناه لغوياً وثقافيا وفكريا وصولاً لارتباط المسلمين به ومدى استفادتهم منه!

وقد توصلوا فى هذا الاتجاه إلى تقسيم تعريف مفهوم الحضارة إلى ثلاثة اتجاهات، ولسوف نلاحظ جيداً موقع الحضارة الإسلامية من تلك الاتجاهات الثلاثة.

لقد ذكر الدكتور محمد عبد القادر الخطيب فى كتابه «دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية» أن تلك الاتجاهات المعنية هى: الأول ويركز فيه أصحابه فى تعريفهم للحضارة على الجانب المادى للإنسان والحياة، أما الاتجاه الثانى فيركز فيه أصحابه على الجانب الروحى أو المعنوى للإنسان، حيث يعتقد هؤلاء أن الحضارة هى كل ما يثرى جانب الروح فى الإنسان ويرفعه إلى المكانة التى تليق به من حيث كونه إنسانا له قلب وضمير وخلق. والحضارة لذلك ما هى إلا التصورات والقيم والمبادئ التى تعصم الإنسان من الخطأ.

والاتجاه الثالث لمفهوم الحضارة، فهو الاتجاه الذى يجمع بين الجانب المادى والمعنوى للإنسان والحياة، فمفهوم الحضارة لدى هؤلاء عام ويشتمل على العقائد والتقاليد الخلقية والإنتاج الفكرى والطابع السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفنى وكذلك صور الإنتاج المادى من المخترعات والعمائر والآلات وهكذا.

• • •

(١) الثقافة العربية والحضارة الإسلامية ـ مصدر سابق.

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا السياق هو: وماذا عن المفهوم الحضارى للإسلام؟. أو ما هو مفهوم الحضارة الإسلامية؟!. هذا السؤال ذاته قد شغل أيضا العديد من المفكرين الإسلاميين فى كل العصور، الأمر الذى دفعهم لتأليف عشرات الكتب للإجابة عليه، وقد اجتمعوا على أمر واحد هو نجاح هذه الحضارة فى تحقيق جانبيها المادى والمعنوى بما يعنى أنها قد استطاعت دون غيرها أن تجمع بين كل متطلبات الإنسان فوق سطح الأرض وفق ما نادت به تعاليم ذلك الدين الحنيف الذى يؤمن فى المقام الأول بقيمة الإنسان ودوره فى تعمير الأرض.

وهناك عشرات الآيات القرآنية التى تحض الإنسان على السير فى نهج الحضارة والتمسك بأصلها وقيمها.. لتحقيق أقصى الغايات التى يتمناها الإنسان لنفسه ولغيره.

وهذا ما دعا مفكرا كبيرا مثل الدكتور حمدى زقزوق ليقول بأن الحضارة ما هى إلا فريضة من فرائض الإسلام التى ينص عليها ذلك الدين الحنيف، وهذا بالضبط ما جعل للحضارة الإسلامية ومفهومها ذلك الاختلاف الكبير بين غيرها من الحضارات.

إذ يكفى أن نقول فى هذا السياق أنها الحضارة التى تميزت بالروح الدينية والمدنية العالية والتى انعكست آثارها على كل مجالات الحضارة الإنسانية المتعددة، وكذلك تفردها بأنها تقوم على عمارة الدنيا.. إذ ثبت أن للمسلمين فضلا كبيرا فى تطوير المجالات المختلفة التى تتعلق بعمارة الأرض وتطوير الزراعة والصناعة. وكذلك تميزت هذه الحضارة عن غيرها ـ وهذا أيضا يدخل ضمن الحديث عن مفهوم الحضارة بمعناه الواسع ـ بأنها قامت ولازالت تقوم على وحدة الثقافة الإسلامية والتي انصهرت بداخلها ثقافات كل الشعوب التى دخلها الإسلام مثل الثقافات الفارسية والهندية والعراقية والفرعونية والحضارات اليونانية والرومانية والبيزنطية. بالإضافة إلى الحضارة أو الثقافة العربية التى كانت هى الأساس الذى بُنيت عليه الحضارة الإسلامية العريقة.

•• قيم الحضارة الإسلامية وأصولها:

وبما أن الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية. . لذلك فقد جاء شاملاً لأمور الدنيا والدين، وشاملاً كذلك لحياة الإنسان المادية والروحية. فقد جاء الإسلام وفق ما توصل إليه جموع المؤرخين جامعاً لخلاصة الأديان كلها. . لذلك نراه لم يترك صغيرة أو كبيرة فى حياة الإنسان وفى حياة بناء الأفراد إلا عالجها مرة تفصيلاً وأخرى إجمالاً، لذلك فقد جاءت قيم الحضارة الإسلامية قيماً شاملة لمتطلبات كل جوانب حياة الإنسان، يغلفها ويظللها الإيمان بالله الواحد الأحد، والذى خلق ذلك الإنسان وسخر له سبل هذه الحياة ويسرها، مصداقاً لقوله تعالى فى سورة فصلت: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ الآية ٥٣.

من هنا نرى أن أهم القيم التى بُنى عليها الإسلام حضاريا هى التى تدور فى فلك الإنسان ومصلحته وعمارته فى الأرض. وكذلك ما ارتبط بها من تعاليم دينية عظيمة أتى بها هذا الدين العظيم، ثم النظرة المحايدة لأهداف تلك الحياة.

والحديث عن الإنسان وعن الدين كان من أهم الأحاديث التى شغلت أيضا قطاعاً كبيراً من المفكرين من الفلاسفة. . وكان لبعضهم فيما عالجوه من قضايا شطحات بعقولهم بعيداً عن مسار حديثهم المنوه عنه والمرتبط بالحضارة الإنسانية والإسلامية.

وبنظرة موضوعية لمكانة الإنسان فى الدين الإسلامى سوف يتضح لنا عظمة هذه الحضارة التي أكدت معانى ذلك الإنسان ودوره فى صناعتها، بشرط أن تكون وجهته فيما يصنع من ابتكارات إلى قدرة الله الذى علم الإنسان مالم يعلم.

وهنا يبرز الخلاف الكبير بين قيم الحضارة الإسلامية وقيم غيرها من

الحضارات التى أخذت تدعى أن نتاجها فيما توصلت إليه من ابتكارات ووسائل راحة للإنسان، إنما مآله العقل وحده! وبالتالى ليس هناك مجال لوجود الله أو علاقته بهذا التقدم!!!.

وللأسف فإن جميع مقومات الحضارة الغربية وكذلك مفاهيمها الآن وبالأمس تستمد وجودها من هذا الاعتقاد الخاطئ الذى يرى أن ربط الدين بالإنسان إنما يساهم فى تعطيل مسيرته الحضارية! وهو ما جعلهم ينظرون أيضا إلى دين الإسلام على أنه دين يعطل مسيرة الحضارة.

ونراهم كثيراً ما يرددون ذلك.. بل ونجد هذا الباب هو المدخل الذى يضحكون به على قطاع كبير من المسلمين حتى من علمائهم.. وقد صدقهم البعض ولايزالون.. رغم ضيق أفق هؤلاء من أصحاب ذلك الاعتقاد، بل واقتناعهم المريض بأن ما يقولونه هو فقط مجرد كلام يحاولون من خلاله تضليل أصحاب هذا الدين والعمل على زيادة الكراهية له فى نفوسهم، كنوع من الضغوط المتنوعة التى تهدف إلى الترويج لأفكار دينهم، والذى للأسف يحسبونه هو دين الحضارة والمدنية من دون الأديان الأخرى!!

• • •

وحين نعود للحديث عن هذه القيم تفصيلاً، نجد أن الإنسان كما سبق أن ذكرنا يحتل قمة هذه القيم.. من وجهة نظر الإسلام. باعتباره العمود الفقرى للحضارة الإنسانية فى ظل تعاليم هذا الدين العظيم.

وقد منح الله هذا الإنسان نعماً كثيرة، لاستخدامها فى صنع هذه الحضارة وبالتالى لتحقيق سعادة كل الجنس البشرى فى الحياة الآمنة المطمئنة.

وهناك الآلاف من المفكرين والفلاسفة من الذين يرون أن هذه النعم المتعددة يأتى فى مقدمتها العقل الذى منحه الله للإنسان كأعظم تميز له عن بقية المخلوقات الأخرى. وذلك من منطلق أن الله تعالى قد اختار الإنسان بجنسه المعروف دون بقية مخلوقاته كى يتحمل الأمانة المتمثلة فى التكليف والمسئولية،

وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ سورة الأحزاب الآية ٧٢.

هذا الاختيار بالتكليف، نابع فى الأساس من تمييز الإنسان بالعقل، الذى خلقه رب العالمين، حتى يستطيع ذلك الإنسان تحمل تبعات هذا التكليف، ولقد استطاع الإنسان بهذا العقل.. الاختيار ما بين الشر والخير والنافع الضار.. كبداية حقيقية لإقامة حضارة مبنية على إرادة الاختيار لصالح المجموع. كما استطاع الإنسان بهذا العقل أيضا أن يبحث وينقب ويفهم ويدرك العلاقة بين الأشياء، كما استطاع فى الوقت نفسه اكتشاف القوانين التى تحكم الكون، ويدرك الأسباب والمسببات.

وكذلك كان العقل هو موطن العلم الذى هو مفتاح الحضارة الإنسانية، سواء العلم التطبيقى أو التجريبى أو العلوم النظرية.

وإذا ما أمعنا النظر طويلاً فى أهمية العقل لحياة الإنسان وحياة المسلم بشكل خاص.. فسوف نجد أنه كما يعتبر من وجهة نظر العديد من العلماء موطن العلم والمعرفة.. نجده كذلك هو الآلة التى خلقها رب العالمين.. للتعرف على وجوده وقدرته وقوته وجلاله أيضا. وقد ربط الله تعالى بذلك ما بين قدرة العقل فى الوصول إلى قيم الحضارة وبين الوصول إلى الوحدانية المنشودة والتى يساندها القلب فى ذات الوقت.

إن حجة الإسلام الإمام الغزالى يصف العقل على حد قول الدكتور زقزوق بأنه: «نموذج من الله» كما يصفه الجاحظ بأنه: «وكيل الله عند الإنسان».

ونظراً لارتباط العقل بالعلم والمعرفة باعتباره المعول عليه وعليها فى إعمار هذا الكون وصنع الحضارة فقد جعله الله فريضة من فرائض الدين، وقد جاء فى

الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «من سلك طريقا يلتمس به علماً سهل الله به طريقاً من طرق الجنة، فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم وإن العلماء هم ورثة الأنبياء». صدق رسول الله ﷺ.

ولقد صاحب العقل وارتباطه بالعلم والمعرفة رغبة أكيدة فى التمتع بالحرية فى الاختيار. . هذه الحرية التى أقرها الإسلام قد جعلها أساس التكليف، وبالتالى فكانت في الوقت نفسه الأساس الذى بُنيت عليه الحضارة الإسلامية التى استهدفت حرية الإنسان وصلاح أحواله فى الدنيا والآخرة.

• • •

أما ثانى ملكة من ملكات الإنسان التى خلقها الله تعالى كميزة وكنعمة عظيمة له من نعمه المتعددة على خلاف كل المخلوقات. . فنقصد بها ما بداخل الإنسان من أحاسيس ومشاعر طيبة فى غالبيتها مادامت بعيدة عن مسار الشيطان، إذ استطاع الإنسان ولايزال من خلال هذه الأحاسيس والتى مزجها بالعقل واختياراته، أن يمهد لقيام حضارة إنسانية عظيمة الشأن. . تهدف كذلك لتحقيق صالح الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة، ولولا تلك الأحاسيس المتنوعة بداخل الإنسان لتحول فى لحظة من اللحظات إلى آلة صماء. كما يعود إلى تلك الأحاسيس فى الوقت نفسه ظهور ملكات الإنسان العقلية الممزوجة بالروحانية والحب والإخلاص. كما ساهمت تلك الأحاسيس في ظهور أنواع من الفنون والآداب استخدمها الإنسان لتهذيب أخلاقياته، ورفع معنوياته ودفعه إلى الأمام فى ظل ثروة علمية ربما قضت عليه وعلى أحلامه إذا ما تجردت من تلك المشاعر وهذه الأحاسيس الإنسانية التى خلقها الله جنبا إلى جنب مع العقل.

ولاشك يعتبر قلب الإنسان هو أعظم مصادر تلك الأحاسيس، ومن خلال خفقاته المتعددة ظهرت حضارة إنسانية ملؤها المشاعر، خاصة فى ظل الدين الذى

يدعو إلى تنميتها جنبا إلى جنب مع العقل وانطلاقاته سواء فى عالم الحقيقة أو فى الواقع أو الخيال.

ولنا أن نتصور تلك القيم العظيمة التى بُنيت عليها الحضارة الإسلامية، والتى امتزجت بالعقل والمعرفة.. وبالأحاسيس الإنسانية والمشاعر الطيبة مما أدى فى نهاية المطاف إلى ظهور حضارة تميزت ولازال هذا التميز قائماً، على الأقل بداخل صدور وجنبات المسلمين من أصحاب هذه الحضارة وبصدور أحفادهم من المسلمين الجدد من الذين يحاولون قدر إمكاناتهم الآن.. اللحاق بهذا الركب الذى تأخروا عنه كثيراً!

ولسوف يصلون إليه بإذن الله فى أقرب وقت يتاح لهم، ذلك لأن بذور تلك الحضارة مازالت تنبت فى قلوبهم وفى صدورهم وعقولهم، وربما تأخر وصول الماء بعض الأيام أو السنوات إلى هذه البذور مما عرضها إلى الجفاف أو إلى التلف المؤقت فى بعض الأحيان!

• • •

وكان لابد مع وجود كل من العقل والأحاسيس ضرورة وجود أداة أو أدوات تترجم ما فى داخل صدور وعقل وقلوب المسلمين من إشعاعات حضارية استمدت جذوتها من الإسلام الحنيف، هذه الأداة خلقها الله فى صورة عضلات مفتولة، تبدو لكل منا دائماً فيما يقدمه الإنسان من أعمال يدوية تبدأ بها حضارته قديما.. ثم استغنى عنها بعض الوقت عندما أسعفه العقل فى مجال الاختراعات، فصنع الآلات التى يستخدمها عوضاً عن عضلاته وقوته الجسمانية.

وكذلك نرى هذه النعم العظيمة متمثلة فيما يكتبه الإنسان من علوم ومعارف، باعتبار تلك العضلات هى الناقل الأمين لأفكار الإنسان، وتدوينها فوق الأوراق أو داخل المعامل.

وفوق كل ذلك، فقد خص الله تعالى الإنسان.. بوسائل يتنقل بها هنا

وهناك، مثله فى ذلك مثل بقية المخلوقات.. وكانت تلك الوسائل هى غايته أيضا فى قديم الأزمان، من قبل اكتشافه للحيوانات التى بدأ يستخدمها فى التنقل.. ثم استغنى عنها أيضاً عندما دله عقله على المزيد من الاختراعات التى ارتبطت بالتنقل والأسفار البعيدة.

ولقد لعب كل ذلك دوره فى تنمية وصنع الحضارات والتى استهدفت فى المقام الأول حياة الإنسان وسعادته فى الأرض.

وقد أوصى الله تعالى من خلال تعاليم الأديان وخاصة دين الإسلام، ذلك الإنسان كي يحافظ على هذه النعم، بل ويعمل على تنميتها واستمرارها لصالح حياته وحياة الآخرين.

ولا تجد دينا مثل الإسلام، وهو الدين الذى حرص كل الحرص على سلامة العقل والأبدان، وأوصى كل البشر بالعناية بها.. باعتبارها سبيله نحو الرقى والتقدم والازدهار، وبالتالى صنع الحضارات.

• • •

ولو بحثنا معًا عن مكانة الجناح الثانى من أجنحة قيم الحضارة الإسلامية، سوف نكتشف أن الدين يلعب دوراً أساسياً فى صناعة هذا الجناح الذى لولاه لما استطاع الإنسان خاصة المسلم من التحليق فى آفاق حضارته العظيمة.

وكما اختلف المؤرخون والفلاسفة والمفكرون فى حديثهم عن الإنسان.. كقيمة حضارية مهمة، فقد اختلفوا كذلك فى حديثهم وتعريفهم للدين وأهميته فى مسار تلك الحضارة. بل وأهميته فى حياة الإنسان بشكل عام.

فعلى حين يرى الدكتور محمود حمدى زقزوق أن الدين يعد نزعة فطرية أصيلة فى نفس الإنسان، بحيث لم يكن هناك أمة فى التاريخ قد عاشت ثم مضت دون أن يكون لها تصور بشكل من الأشكال عن الدين، والألوهية والمصير.

وإذا كان الدين يلبى حاجات الإنسان الروحية فإن ذلك يعنى أنه قد جاء لمصلحة الإنسان. إلا أن علماء الاجتماع لهم رأى آخر فى تعريف الدين. حيث يرى أكثرهم، بأنه نظام متكامل من المعتقدات وأسلوب حياة وشعائر ومؤسسات يمكن للأفراد من خلالها أن يعطوا أو يجدوا معنى لحياتهم بالتوجه والالتزام بما يعتبرونه مقدساً أو له قيمة نهائية[1].

وكذلك هناك رأى مهم عن تعريف الدين كتبه الإمام الشيخ محمد عبده.. يقول فيه: إن الدين وضع إلهى ومعلمه والداعى إليه البشر، تتلقاه العقول عن المبشرين والمنذرين، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحى، ومنقول عنهم بالبلاغة والدراسة والتعليم والتلقين، وهو عند الجميع أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ فى الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها، فله السلطة على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والإرادات فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها[2].

وهناك بخلاف ذلك آلاف التعريفات الخاصة بالدين.. ولا ندرى لماذا ذهب أصحابها بعيداً عن جوهر الدين ذاته، كما ذهب أصحاب التعريفات السابقة.. مع أن تعريف الدين واضح وصريح، وقد عرّفنا به رب العالمين فى قوله تعالى: **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**.

ولكن ماذا نفعل للفلاسفة وللمفكرين من الذين يريدون الذهاب بنا بعيداً عن كل مدلول معقول، رغم أن لهم الحق فى ذلك وفق رؤيتهم الخاصة، والتى من الحرية الأخذ بها أو رفضها!

ومعنى أن الدين هو الإسلام فإنه من الضرورى الأخذ بما جاء فيه من تعاليم

---

(١) الدين والسياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية مايكل كوربت وجوليا سيتشل كوربى.

(٢) الإسلام دين العلم والمدنية ـ للشيخ الإمام محمد عبده ـ تحقيق ودراسة د. عاطف العراقى.

وعقائد وعبادات، ولقد سبق لنا القول فى مواضع كثيرة عن ماهية الإسلام ومعناه.. والأصول التى يقوم عليها ويدعو إليها.

والدكتور محمود زقزوق يؤكدها فى قوله: أنه إذا ما تأملنا تشريعات الإسلام كلها بما فيها العبادات نجد أنها جميعا تنطلق من منطلق واحد هو مصلحة الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة، ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يركز على موضع أساسى هو الإنسان، فكل ما فى القرآن إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان أو عن أمر يتصل بالإنسان بشكل أو بآخر.

وفى هذا المعنى يحاول الدكتور زقزوق الربط بين الإنسان وبين الدين، باعتبار الإنسان على حد قوله هو قضية القضايا فى الدين، ذلك لأنه محور الكون وسيده، والذى أعطاه هذه المكانة الفريدة هو الله الذى جعله خليفة فى الأرض وأسند إليه مهمة تعمير الكون وصنع الحضارة فيه[1].

ويصل بنا الدكتور زقزوق إلى نتيجة مهمة فى هذا السياق، حيث يتجلى ذلك فى قوله: إن المتتبع لتاريخ الحضارات السابقة وما تركته لنا من آثار لاتزال قائمة يستطيع أن يتعرف بسهولة على ما كان للفكرة الدينية فى هذه الحضارات من دور وأثر عظيم، فالدين فعال فى كل حضارة، وهذا أمر لا يمكن تجاهله.

هذا على سبيل الإجمال بالنسبة لنظرة الأديان للإنسان، فما بالنا بنظرة الدين الذى جاءت كل تعاليمه من أجل مصلحة الإنسان، وقد نظر إلى هذه المصلحة بطريقة متوازنة.. من حيث الاهتمام بالدنيا والاهتمام بالآخرة.

هذا الدين الذى طلب من الإنسان وفق ما جاء بالقرآن الكريم ضرورة أن يقيم التوازن المطلوب بين هذين الاهتمامين: الاهتمام بالدنيا ثم الاهتمام بالآخرة، ولقد نبهنا رب العالمين إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ سورة القصص الآية ٧٧.

---

(١) د. محمود حمدى زقزوق ـ مصدر سابق.

وهذا كله يعنى أن الإسلام كدين حضارى عظيم إنما يدفع أتباعه دفعاً لصنع الحضارة وضمان استمرارها، ليس فقط بتأكيده على العلم وأهميته البالغة فى صنع الحضارة، وإنما أيضا بتأكيده على ضرورة دراسة الحضارات السابقة والاستفادة من الدروس والعبر التى يمكن استخلاصها من هذه الدراسة. . ومن ذلك ما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: **﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾**[1].

• • •

وإذا ما تركنا أحوال الإنسان، وارتباطه بالدين كقيمة من قيم الحضارة الإسلامية. . لنعرف الشىء اليسير عن بقية تلك القيم، لابد لنا أن نتحدث فى السياق نفسه عن آخر تلك القيم ونقصد بها نظرة الإسلام للحياة الدنيا والآخرة. ذلك لأن الحضارة لا يمكن أن تستقيم فى ظل غياب معرفة الإنسان للحياة الدنيا والآخرة وأهدافه فى كل منهما.

هذه المعرفة ذاتها تمثل بالنسبة لمسيرة الحضارات أهمية كبيرة وعظيمة. وقد تجلت هذه الأهمية وتلك القيمة فى الحضارة الإسلامية من دون غيرها، وهذا ما جعل لهذه الحضارة ميزة خاصة عن غيرها. . رغم عدم استمرارها وتعرضها لهزات كثيرة ومتنوعة على عمرها الطويل.

ونظرة الإنسان المسلم للحياة الدنيا والآخرة، هى نظرة جادة وعميقة ومؤثرة، وقد لعبت تلك النظرة الدور البارز فى مسار الحضارة الإسلامية، مما جعلها تحقق المعادلة الصعبة فيما يخص متطلبات المادة والروح أو الجسد والأحاسيس، وهو ما تعانى من فقدانه الآن الحضارة الأوروبية، كما عانت منه من قبل الحضارات السابقة على الإسلام، وهى الحضارات التى تتجاهل بالتعمد الجانب الروحى أو الإنسانى أو الإحساس الطيب بداخل ذلك الإنسان.

---

(١) المصدر السابق.

هذا التجاهل جعل من رواد الحضارة الأوروبية مثلاً.. يشجعون العلم الذى نتج عنه أضرار للإنسان، وتعطيل مسيرة حياته، وخير مثال على ذلك تشجيعهم للاستنساخ البشرى، وغيره من التجارب العلمية التى تعجل بنهاية الإنسان نفسه فوق سطح الأرض مثل التجارب النووية وتجارب البيولوجيات.. والإقبال على استخدام المبيدات والكيماويات والألوان والأصباغ الصناعية حتى فى صناعة أكلات الإنسان ذاته».

• • •

إن الحضارة الإسلامية قد نجحت إلى حد بعيد فى تحقيق ذلك التوازن العظيم بين متطلبات الحياة الدنيا والآخرة، إلى جانب تحقيق ذلك التوازن بين المادة والروح أو بين ما يتطلبه الجسد وما تشتاق إليه الروح أو النفس الطيبة.

والعودة إلى تاريخ هذه الحضارة، خاصة فى مجال العلوم التجريبية والطب يمكننا من اكتشاف عظمة هذه الحضارة فيما توصلت إليه من اكتشافات، وازنت بين احتياجات الإنسان فى حياته الأولى والآخرة. وكان مصدر ذلك فى الأساس هو التمسك بالشريعة الإسلامية ونصوصها وما جاء به هذا الدين الحنيف من تعاليم عظيمة.

فما من اكتشاف علمى توصل إليه العلماء العرب والمسلمون إلا كان وراءه مصلحة الإنسان، من خلال تقديم الحلول لكل مشاكله دون المساس بالثوابت التى نادى بها الدين الإسلامى والتى أساسها الحفاظ على الإنسان، مما يجعله دائماً يعيش فى رفاهية وأمان واطمئنان جنباً إلى جنب مع أخيه الإنسان.

• • •

هذا عن أهم قيم الحضارة الإسلامية، فماذا عن أصولها؟! إن هناك أيضا العديد من المؤرخين ومن المفكرين من الذين توسعوا فى دراسة هذه الأصول وتنوعها. وقد اختلفوا كذلك فى حصرها وبيان أهميتها، لكننا ومع ذلك سوف

نقدم أكثر هذه الأصول شهرة من حيث الاتفاق بين هؤلاء المؤرخين، ومن حيث أيضاً اقترابها من العقل والفهم، وقد اعتبرها عالم مثل الدكتور محمود زقزوق من صنف القيم وليست من الأصول. وهى التى يأتى فى مقدمتها التفكير باعتباره أول فضائل الإنسان ونعم الله عليه، حيث حض الإسلام على التفكير ودعا إليه.. بدليل وجود آيات قرآنية عديدة من التى أشارت إلى هذا المنهج، وضرورة استمراره فى حياة الإنسان. حتى أن مفكراً كبيراً مثل العقاد قد اعتبر التفكير فريضة إسلامية، وكذلك ابن رشد الذى اعتبر النظر العقلى واجباً شرعياً.

أما ثانى أصل من أصول هذه الحضارة.. فهو العلم الذى يعتبره الدكتور شوقى ضيف من أولى ما عانق الإسلام به عباده وفق ما جاء فى القرآن الكريم إذ خاطب الله رسوله ﷺ بقوله تعالى: **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾**.

وقد بث الإسلام والقرآن الكريم روح العلم فى أتباعه.. وأول ما يلاحظ من ذلك تغييره لدلالات ألفاظ كانوا يعرفونها، فإذا هى تحمل دلالات جديدة،

ويضيف: وواضح أيضاً أن الإسلام لا يعانق العلم فحسب، بل يتحد معه مكوناً علوماً ثلاثة هى علم التفسير وعلم الحديث أو السنة وعلم الفقه.

ليس هذا فقط، بل إن القرآن الكريم بجانب حضه على هذه العلوم الدينية ينوه كذلك إلى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية والطبية[1].

وبجانب العلم هناك أصول أخرى مثل العمل، وحسن المعاملة والأخلاق والنظام والحض على اتباع حقوق الإنسان.

•• المنتج الحضارى الإسلامى وأهم رواده:

وبعد مائة عام تقريبا.. من انتشار الإسلام خارج أرض الحجاز.. وبعد هذا التفاعل العظيم الذى حدث بين العرب والمسلمين الفاتحين وبين غيرهم من

(١) د. شوقى ضيف ـ مصدر سابق.

المسلمين الذين دخلوا هذا الدين طواعية من رعايا تلك البلاد المفتوحة.. أخذت أنوار الحضارة الإسلامية فى السطوع رويداً رويداً..، فكلما تمكن ذلك الدين فى صدور أتباعه سواء من المسلمين القدامى أو الجدد.. ازداد إقبالهم على المشاركة فى صنع هذه الحضارة، مع أنهم كانوا من قبل على أوضاعهم العلمية والحضارية.. بدون تغيير يذكر..

هذا التغيير العظيم الذى أحدثه ذلك الدين.. جعلهم أكثر مشاركة وأكثر فعالية فى تقديم كل ما هو جديد فى المنتج الحضارى الإسلامى ممزوجاً بما كان سائداً آنذاك فى مجتمعاتهم، مع تعديله وفقاً للرؤية الإسلامية والقيم الإسلامية التى جعلت من الحضارة مطلباً للجميع بصرف النظر عن العنصرية الدينية أو القومية.

ولقد تنوع هذا المنتج الحضارى تنوعاً غير مسبوق، وفق ما حض عليه القرآن الكريم وما نادت به السنة النبوية المطهرة، إذا سبق لنا القول وفق ما سطره عالم جليل مثل الدكتور شوقى ضيف، أن القرآن الكريم قد دفع المسلمين دفعاً نحو حضارة علمية أساسها العلوم الدينية ثم العلوم الطبيعية والطبية والفلكية، وكثيراً ما أشار هذا الكتاب الحكيم فى كثير من آياته إلى تلك العلوم وفوائدها للإنسان.

هذه الإشارة وذلك التنويه قد ملأ قلوب المسلمين شغفا بالعلم فى مختلف أنواعه، فما إن انتقل الرسول الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى انكب المسلمون على دراسة العلوم الدينية: مثل علم التفسير وعلم الحديث أو السنة وعلم الفقه..

كما أخذوا فى الوقت نفسه فى التعرف بعد الفتوحات الإسلامية على ما لدى الأمم المستعربة من علوم الكيمياء والفلك والرياضيات والطب.. لذلك سرعان ما قامت حركة كبرى من الترجمة لنقل أصول هذه العلوم إلى العربية من منطلق التعايش الفكرى وعقلانية الإسلام..

ولقد استطاع المسلمون الأوائل استيعاب هذه العلوم بعد ترجمتها، بل ونجحوا

فى تحقيق إضافات عديدة إليها، وبمشاركة أهل هذه البلاد المفتوحة بعدما تحولوا إلى الإسلام.

جرى ذلك فى الوقت الذى نشطت فيه الحركة الفكرية العربية فى اتجاه وضع أصول علم النحو استجابة لتلك الشعوب والتى اشتاقت لتعلم اللغة العربية.. لتحقيق المزيد من المشاركة الحضارية الفعالة.

إذ أحست هذه الشعوب على حد قول الدكتور ضيف بالحاجة الشديدة لمعرفة أوضاع العربية فى الإعراب والتعريف للكلمات، ومن هنا فقد أخذت حركات تعليمية كبرى تنهض نهضة واسعة فى العلوم الدينية واللغوية والعلوم الأجنبية ثم العلوم الطبيعية.

• • •

وما نود أن نشير إليه فى سياق الحديث عن المنتج الحضارى الإسلامى وإسهاماته فى سعادة البشرية كلها.. أن ما سوف نذكره هنا سوف يكون كما أكدنا من قبل على سبيل الاقتطاف دون البيان الكامل لهذه المنتجات الحضارية، ذلك لأن هناك عشرات الكتب التى وضعها أصحابها لبيان تلك الإنجازات الحضارية للإسلام..

والمتتبع الواعى لكل ما كتب عن الحضارة الإسلامية، فيما يخص منتجاتها الفكرية والثقافية والعلمية سوف يكتشف أن آفاق تلك الحضارة قد انطلقت فى عدة طرق وفروع وعلوم ومنافذ فكرية تنوعت وفق مقتضيات كل عصر من عصور هذه الحضارة حتى وصلت إلى تكاملها وعظمتها فى الأندلس وفى المغرب العربى وفى بلاد التركمستان وبلاد الفرس.

ولقد استطعنا نحن بجهود كبيرة أن نحصر هذه المنتجات الحضارية للإسلام فى رافدين أساسين.. لعبا الدور الرئيسى فى إبراز قيمة وأهمية هذه الحضارة، الرافد الأول وتمثله العلوم الثقافية أو العلوم النظرية.. أو علوم الكلام.

وقد سبق لنا التنويه عن بعضها مثل علوم التفسير والحديث والفقه واللغة والنحو ثم علوم الفلسفة التى برز فيها مفكرون عظماء غيروا من مسيرة مثل هذه العلوم النظرية.. وما كان سائداً آنذاك وقت اشتداد عود هذه العلوم عند اليونان وأهل أثينا، مثل أرسطو وأفلاطون وغيرهم.. إذ ظهر فى هذا الميدان الثقافى من المسلمين أساتذة عظماء من أمثال ابن رشد والغزالى والجاحظ والبيرونى وآخرون. ولا ننسى أن نشير فى سياق حديث هذا الرافد المهم من روافد الحضارة الإسلامية أيضاً إلى تفوق العرب المسلمين فى الأدب بكل أنواعه. حتى كان لهم اليد الطولى فى اختراع ألوان أدبية جديدة انتقلت هى الأخرى إلى الغرب، مع ما انتقل من علوم تمت ترجمتها إلى اللغات الأوربية كبداية لاستيعاب الآخرين وإرهاصات هذه الحضارة العظيمة.

كذلك كان من الضرورى الحديث عن الفنون الإسلامية بكافة أنواعها والتى لاتزال إلى يومنا هذا تتفرد بالتوحد والجمال وعلو القيمة والأهمية..

ولاشك كانت هناك عوامل كثيرة ساهمت بقوة فى ازدهار هذا الجانب من جوانب الحضارة الإسلامية. إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى وزير هارون الرشيد ببغداد مصنعا للورق، فانتقل الناس من الكتابة فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى إلى الكتابة فى الورق المعروف لدينا الآن لخفته ورخص ثمنه. عندئذ كثرت الكتب والمؤلفات، كما ساهم ذلك أيضا فى كثرة الوراقين الذين يعيشون من نسخها، وقد أنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها. وبالتالى راجت الحركة الثقافية بكل أنواعها، مما أدى فى الوقت نفسه إلى انتشار المكتبات العامة والخاصة.

وكانت باكورة تلك المكتبات ما عرف باسم «دار الحكمة» كأول مكتبة عامة أنشأها هارون الرشيد للاستفادة مما بها من مؤلفات.

أضف إلى ذلك انتشار المكتبات بالمساجد والمنازل، وهناك عشرات المكتبات

العامة والمشهورة فى تاريخ الحضارة الإسلامية والتى لعبت دوراً كبيراً فى نشر الثقافة الإسلامية وبالتالى ساهمت فى دعم الحضارة الإنسانية بكل معانيها.

ومنذ أواخر القرن الثانى الهجرى وطوال القرون التالية.. ازدهرت الحضارة الإسلامية فى ظل ازدهار الثقافة الإسلامية بمختلف موضوعاتها وأنواعها، مع ظهور رواد لتلك النهضة الثقافية فى كل البلدان الإسلامية من الذين لايزالون يحملون إرهاصات هذه الحضارة، وقد تمكنوا من توصيل أنوار أقباسها دوماً إلى الدول الأوروبية التى كانت آنذاك تنام فى عسل التخلف!

• • •

وعندما ننتقل للحديث عن الرافد الثانى من روافد تلك الحضارة العظيمة، ونقصد به الرافد العلمى.. سوف نجد كذلك زخماً عظيماً وميراثاً كبيراً من هذه العلوم التى اخترعها العرب المسلمون وبالتالى انتقلت إلى الغرب، وبنوا فوقها حضارتهم الحالية.

ولقد أعجبتنى كثيراً تلك العبارات التى استفتح بها الأستاذ الدكتور محمد الجوهرى حديثه عن العلم فى الحضارة الإسلامية والتى ذكر فيها بالحرف: «كثيراً ما يطلق عصر العلم على عصر النهضة الأوروبية، ولاشك أن عصر النهضة الأروبية كان له إسهاماته العظيمة فى تقدم العلوم، لكن التقدم الكبير للعلوم حدث فى القرن العشرين. أما البداية الحقيقية لعصر العلم فترجع إلى العصر الأموى والعصر العباسى، حيث أخذت العلوم بداياتها الحقيقية وآثارها العملية فى العصر الإسلامى».

أضف إلى ذلك أن عصر العلم فى أوروبا قد قام على فكرة التحرر من الأفكار الكهنوتية المسيحية التى كانت تتصادم مع العقل، أما فى العرف الإسلامى، فقد جاء عصر العلم متزامنا مع بدايات الإسلام وانتشاره في ربوع البلاد المفتوحة، ذلك لأن الإسلام ليس فيه ما يتصادم مع الحقائق العلمية..

من كل ذلك نرى أن للإسلام ولحضارته العظيمة الإسهامات المهمة فى العلوم الإنسانية بمختلف ألوانها وأنواعها.. سواء ما كان منها فى الطب والصيدلة والكيمياء والطبيعة والفلك. أو ما كان منها فى بقية العلوم التطبيقية الأخرى.

وما يثبت ذلك بوضوح وجود العشرات من الرواد المسلمين من العلماء الذين ساهموا فى صنع هذه الحضارة التى انتقلت بكل تفاصيلها إلى الغرب، دون الاعتراف بذلك إلا على استحياء!

ويكفى تدليلا على ذلك القول بأن العلماء المسلمين كانوا هم رواد المناهج التجريبية العلمية فى كثير من المجالات العلمية.. وقد جعلوا التجربة العلمية شرطاً للوصول إلى الحقيقة العلمية.

ولسنا فى حاجة مرة أخرى إلى القول بأن الحديث عن مظاهر الحضارة الإسلامية.. لن يسعه كل هذه الأوراق.. وإنما ما قدمناه كان على سبيل الاقتباس والاقتطاف.. لبيان عظمة هذا الدين.. الذى قام على التسامح والمحبة وتقديم كل ما يحقق سعادة الإنسان للإنسان، بصرف النظر عن لونه أو عرقه أو لغته! وهو للأسف ما تفتقده كل الحضارات التى قامت سواء من قبل الحضارة الإسلامية أو من بعدها.

وما نود أن نؤكده من قبل أن نفترق فى هذا الباب أن الحضارة الإسلامية قادمة لا محالة.. لأن هدفها عظيم وأصولها متينة وقوية. مادام الله قد أراد لهذا الدين الحنيف أن يكون هو مسك الختام، وذلك من قبل أن تقوم الساعة، وتنتهى الدنيا، بل ويذوب الكون إيذاناً بظهور الحق، بعدما تقام الموازين، ليعرف كل منا ماله وما عليه.

ولقد سبق لنا أن نوهنا عن بعض رواد الحضارة الإسلامية فى ميدانها الثقافى والفكرى.. وها نحن نقدم بعض رواد النهضة العلمية لتلك الحضارة، والذين يأتى فى مقدمتهم الرئيس العالم الجليل ابن سينا صاحب أشهر المؤلفات فى الطب والعلوم. وكذلك جابر بن حيان رائد الرياضيات ثم أبو بكر الرازى مؤسس علم

الكيمياء الحديثة والإدريسى الجغرافى العظيم، ورائد علم الجغرافيا، وأول من رسم خريطة للكرة الأرضية، وكذلك العالم المسلم الملقب بابن غياث والخوارزمى الذى ابتكر علم الجبر ووضع أسسه.. إضافة إلى البيرونى الذى لمع فى علوم الفلك وحساب المثلثات.

ليس هذا فقط.. بل هناك بخلافهم العشرات من هؤلاء العلماء الأوائل الذين لابد أن نقتدى بهم لإعادة روح العلم لحضارة الإسلام فى العصر الحديث.. لا لكى تتماشى مع غيرها من الحضارات حاليا.. بل كى تتفوق وتتقدم مسيرة تلك الحضارات.